أخبار اليوم
قطاع الثقافة



فردوس

رواية

محمد البساطى

أخبار اليوم

قطاع الثقافة

فردوس

رواية

محمد البساطى

دار

أخبار اليوم

قطاع الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

د. محمد عهدي فضلي

المشرف العام

سعيد عبده

لوحة الغلاف للفنان: **صلاح طاهر**

غلاف : **إسلام الشيخ**

الإخراج الفني : **أسامة أحمد نجيب**

إدارة التسويق تليفاكس: 25795896

email:thakafa.ad@gmail.com

وكلاؤنا بالخارج

دولة الإمارات العربية مكتبة أخبار اليوم ـ المركز التجارى المصرى بالشارقة

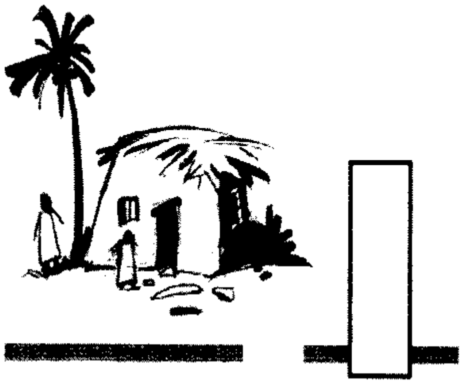
0097142660337 - 00971501499714

السعودية ودول الخليج سلسلة مكتبات العبيكان :

0096614160018 - 00966503279717

مكتبة جرير : 0096650217702 - 009664626000

فردوس



عندما قالت فردوس لزوجها أن ابنه حاول معها نفث دفقة دخان من منخريه وضحك. قال:

- الواد كبر.

هز رأسه خفيفا وضحك مرة أخرى.

لم تسترح لهزة رأسه. ولا لضحكته. رمقته بجانب عينها ولمت ساقيها الممدودتين. كان متربعا على المصطبة أمام دارها. هى قاعدة على كومة قش جنب المصطبة تعد النار للجوزة وبراد الشاى بين الجمرات. من يعلم بما يدور فى رأسه. ربما ظن أنها تسعى للوقيعة بينه وبين ضرتها وأولاده. قالت:

- كنت تكلمه كلمتين.

نفث دخانا كثيفا وابتسم:

- آه كبر. شفتِ شنبه؟

صبت الشاى فى الكوب ورفعته إليه.

أمامهما تمتد الوسعاية، تغطى ظلال العصر منتصفها، وفى الجانب الآخر صف من البيوت الطينية فوقها أكوام قش وحطب وغسيل يرفرف على الحبال، وخلفها تترامى أحواض الزرع

حيث اعتادت أن تلمح زوجها فى الصباح على حمارته لدى ذهابه يتحرك بين ظلال أشجار التوت والكافور على ضفة مجرى الماء. فى عودته يمر أحيانا عليها وجلبابه على كتفه، تصب عليه الماء ليشطف وجهه وساقيه، ويشرب الشاى ويدخن حجرين ويذهب إلى بيته الثانى. وفيما مضى كان يقضى قيلولته عندها، والليالى أيضا. دارها ملحقة بدار ضرتها. حجرة بحوش صغير. وما حاجتها لحجرة أخرى أو حوش أكبر. الدجاجات العشر وأربع بطات. وكتاكيت فى قفص. ولا شىء آخر. حجرتها نظيفة. بها دائما نسمة هواء، تكنسها مرتين فى اليوم وترش أرضها بالماء. سريرها ما يزال محتفظا برونقه ولمعة عمدانه، الملاءة وأكياس المخدات زاهية الألوان، مطرزة الحواف، تغيرها كل يوم جمعة. الناموسية معلقة بأطراف الأعمدة تنساب لتحتوى السرير. ربما كانت الوحيدة فى العزبة التى تستخدمها، وعندها بدلا من الواحدة اثنتان. عندما تأتى نسوة إلى بيتها يطلبن رؤيتها.

- نشوف الناموسية يا فردوس.

حجرتها مغلقة والمفتاح فى جيبها. لا تستريح للقدم الغريبة داخلها. قعدتها دائما فى الحوش أو على المصطبة، تفتحها لهن. يتحسسن نسيج الناموسية ويدخلن رؤوسهن فى فراغها:

- يا اختى عايزة بال رايق

- آه. والواحدة تشلح على راحتها.

لا تستجيب لمزاحهن. تكتفى بابتسامة وتخرج، ويخرجن وراءها. يحلو لها فى ليالى الصيف أن تفتح شباك الحجرة وتستلقى بقميصها الداخلى وتغلق فتحة الناموسية. وكأنما بعدت

عن الدنيا وما فيها. تستعيد أياما بعيدة عندما كانت تلميذة بالمدرسة الإلزامى، ووجوه زميلات لها نسيت أسماءهن، وتحدق للسماء والنجوم خلال الشباك حتى يغلبها النوم. زوجها فى أيامهما الأولى كان يتردد قليلا قبل الدخول إلى الناموسية. يغمغم:

- طيب. أشطف نفسى بكوزين ميه.

رغم ذلك تأتيها لحظات تتمنى لو أن بيتها كان فى فوضى وقذارة بيت ضرتها. نصيب. خمس سنوات عمر زواجها. لم تفقد الأمل بعد. عمتها جاءها الولد بعد ثمانى سنوات. تستحم فى البكور وتضفر شعرها. تترك الضفيرة مدلاة على صدرها، وأحيانا تلفها حول رأسها. شعرها الأسود اللامع. تزيح الطرحة قليلا عن مقدمة رأسها لدى خروجها. مشوارها اليومى إلى دكان البقالة فى الطرف الآخر من العزبة. تحمل ما تجمع لديها من بيض تستبدله بما تريد. ترى أول ما ترى عينى ضرتها مصوبتين إلى ما يظهر من شعرها. حتى زوجها الذى لا يلتفت أبدا لشىء تجده أحيانا يرمق ضفيرتها متعجبا، ويبدو كأنما سيقول شيئا ولا يقوله. الشبشب فى قدميها دائما. عندها ثلاثة بألوان مختلفة. ظلت بحالها من يوم زواجها. لم تتغير ألوانها ولا نالها شىء. تدعك قدميها حتى يحمر كعباها. تمر فى طريقها بنسوة يقعدن أمام بيت، تلمحهن ينظرن إليها من فوق لتحت. كن فيما مضى يوقفنها. يسألنها من أين جاءت بالشبشب والطرحة الحرير الناعمة؟ ويسألنها ان كانت تضع شيئا على شعرها؟

وتقول انها لا تضع شيئا.

وكعبك الأحمر؟

وتقول أنها لا تعرف. تغسلهما كل يوم.

ويسألن : كم مرة؟

وتقول : في الصباح والعصر.

ويقلن انها لابد تغسلهما عشر مرات. وربما أكثر

ويتحسسن جلبابها ويسألن ان كانت اشترت قماشه من التاجر الذى يأتى إلى العزبة؟

وتقول انها قطعة قماش كانت عندها.

ويسألن ان كان عندها غيرها

وتقول. خمس حتت.

وتمر فى عودتها بضرتها واقفة أمام دارها حافية ومتربة وشعرها منكوش، وعلى ذراعها ابنة السبعة أشهر التى لم ترها بعد. تخرج ضرتها حبة تمر من جيبها، تدعكها باصبعيها وتدسها فى فم الطفلة. تظلل ضرتها عينيها بيدها وتنظر نحوها. هى وقد أبطأت من خطوتها تحس بنظرتها تتوقف على قدميها، ويندفع صغارها من جوف الدار صائحات، دائما ما يكون فى جيبها ملبس ملون تعطيه لهن. تلك الأحداث اليومية، كل ما تراه عيناها، تختزنه حتى تخلو إلى نفسها داخل الناموسية. تستعيده على مهل. هى لا تكره ضرتها، وضرتها أيضا. يتبادلان كلاما حين تلتقيان أو تجلسان مع أخريات، وتزورها صبيحة الأعياد، وتفطر معهم طوال شهر رمضان، وفيما مضى كانت ترسل ابنتها تستلف طبقين أو كوبين. لا ترد ما تأخذه، وأحيانا ترده مكسورا. كفت عن إعطائها. وكانت ابنتها الصغرى تأتى كل صباح:

- خالة. سرحى لى شعرى.

تغسل لها رأسها، وتضفر شعرها، وتعلق شريطا ملونا فى كل

ضفيرة. أحيانا تقضى معها البنت فترة الصباح، تعدان طعاما لغذائهما، وتصنعان عروسا من القماش تحشوانها بالقطن، وتخيطان لها الملابس وتتبادلان الحكايات. صنعتا أكثر من عروس. ترصها البنت متجاورة وتغطيها. تقول:

- أشوف أمي وأرجع.

ولا ترجع. تنتظرها على الغذاء ولا تأتي. وجاء اليوم الذى انقطعت فيه رجلها. أقبلت ذات صباح وحملت عرائسها وخرجت دون كلمة. هى لا تسأل، وكانت تشعر أن هذا اليوم قريب. أمها وهى حرة فيها. لا تريدها أن تأتى عندها فليكن.

جفلت على صوت الولد. أحكمت الطرحة حول رأسها. زوجها على المصطبة أخذته غفوة مستندا بظهره للجدار وذراعه مسترخية على ركبته، لمحت الولد بطرف عينها أمام بيتهم مندفعا وراء جدى، قذف بنفسه فوقه ممسكا بقرنيه الصغيرين والجدى يعافر معه. الولد يضحك صاخبا مشمرا الجلباب عن ساقيه، يتعثر ويتدحرج فى التراب وذراعه لا تفلت رقبة الجدى الذى مد بوزه إلى وجهه، تبتسم رغما عنها مخفية جانب وجهها بالطرحة. تتمتم "ركبه عفريت". وكانت تقلب الجمرات بعود حطب حين أحست به قريبا منها. توتر جسدها وظلت فى انحناءتها، ثم التفتت ورأته ما يزال هناك أمام بيتهم ينفض جلبابه محدقا إليها. حين تلاقت نظراتهما تحرك قادما إليها. زمجرت ونادت زوجها فى خفوت، فتح عينيه، نظر إليها قليلا ثم عاد لغفوته.

قرفص الولد أمامها. راح يحكى ضاحكا عن الجدى الذى قطع نفسه. هى ملمومة على نفسها لا تنظر إليه. ترقب حركته بطرف عينها. صب لنفسه شايا واستراح فى قعدته. مال بعد قليل

ليسحب الجوزة من جوارها. لمست ذراعه فخذها واسترخت فوقها، أزاحت ذراعه وظلت فى جلستها ساكنة. كان يدخن متمهلا مختلسا النظر إليها، ثم سحب نفسا طويلا انفجر على أثره سعاله، رمى الجوزة جانبا. استيقظ زوجها، نظر حوله ودلى ساقيه.

سأل ابنه ان كان فكّ البهيمتين من الساقية؟

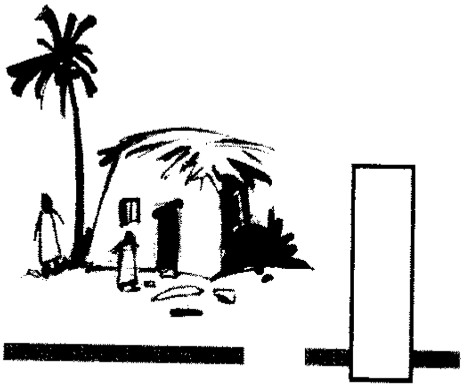
قال الولد انه فكهما.

- عدت بهما؟

- لم تقل لى.

هى فى قعدتها تنكش الرماد وتنصت لكلامهما، تراهما ينهضان وذراع زوجها على كتف الولد فى طريقهما إلى البيت الآخر. ظل بصرها عالقا بهما حتى اختفيا داخله. أفرغت ماء الجوزة على الجمرات. كانت تغمغم «الواد كبر».

* * *



دخلت دارها وأغلقت الباب. منذ بدأ محاولاته معها وهى تغلق الباب على نفسها. فلت عياره ولم يعد له أمان. وفيما مضى وزوجها يبيت الليلة بعد الليلة عندها كان يأتى، تكون خلف البيت ومعها العنزة، اشترتها من نقوط زواجها، ويطلب منها مفتاح البيت ليستحم، وتلمح غياره النظيف تحت أبطه، وتعطيه المفتاح. تدخل البيت بعدها، تسمع صوته فى الكنيف يستحم، يقول لها وهو ينفض الماء عن شعر رأسه أنه لم يعد يستطيع أن يختلى بالكنيف فى بيتهم، إخواته لا تتركنه خاليا لحظة. فى أيام البرد كانت تسخن له الماء وتحمل له الوعاء إلى الكنيف، يأتيها صياحه حين تلسعه المياه الساخنة، وتضحك، يطلب منها ماء باردا، يوارب الباب مختفيا خلفه ويمد ذراعه إليها، تناوله الكوز ممتلئا، أحيانا بعد الاستحمام يلتفت إلى سريرها. يقف بباب الحجرة وينظر إليها متسائلا، تومئ له ضاحكة، يتمدد داخل الناموسية، يتقلب ويرفس بقدميه ثم يأخذه النوم، ومرات يأتى زوجها وهو نائم، هى فى قعدتها على العتبة تنقى الرز أو

تقطف ملوخية، يسألها وهو يخطو فوق ساقيها الممدودتين إن كان الولد عندها؟

تشير برأسها إلى الداخل، يشطف نفسه وينادى الولد الذى يخرج من الحجرة مبرطما متجها إلى الباب، يصيح به زوجها ليبقى للغذاء، وحين يعلم بوجود الفرخة المحمرة والملوخية يجلس على الحصيرة جنب أبيه. ويكون خارجا من بيتهم، أو ماشيا فى الشارع ويراها على العتبة، يستدير، يقعد بجوارها، يتناول من حجرها حفنة لب بطيخ، تقليه كلما تجمع عندها، يحكى لها عما فعله ليلة أمس هو وأصحابه، كانوا عند النهر ولمحوا نسوة وبنات قادمات، اختبئوا بين أشجار على الشاطئ حتى خلعن هدومهن ونزلن إلى الماء، ثم انطلقت أصواتهم وصفيرهم، صراخهن فى النهر، وشتائمهن، ويجرون مبتعدين. يضحك. وتضحك هى أيضا.

يسألها ان كانت استحمت يوما فى النهر؟

- آه. مرة. زمان.

ويوما كانت بالحوش وجاء. وقف بالباب وقال انه كان مارا وشم الرائحة. ضحك:

- المهلبية.

أطباق المهلبية على سطح النملية ساخنة يتصاعد منها البخار. قالت:

- اصبر لما تبرد

كان يقف بجوارها، والتفتت إليه، قالت:

- والله وطولت يا سعد.

ألصق كتفه بكتفها وشب بصدره، ضحك وقال:

- أطول منك.

تناول طبق مهلبية، التهمه سريعا، وتناول طبقا آخر ونظر إليها متسائلا، قالت:

- وأبوك؟

- عنده أربعة أطباق. تكفيه.

عندما انتبهت لمحاولاته معها لم تعد تسمح له بالنوم فى سريرها أو الاستحمام عندها، يقف مطرقا مستمعا لرفضها ثم يستدير ويمضى، وتكون فى وقفتها بالباب وتراه قادما، تدخل وتغلق الباب قبل أن يصل إليه. يحيرها تجرؤه عليها ولا تفهمه، ومتى انتبهت إليه؟ يوم الغسيل؟ وربما حاول قبلها ولم تلتفت إليه. لم يخطر لها أبدا. يتسلل حتى لا تسمع له صوتا. ويقول لها يا خالة، وظل يقولها حتى بعد أن مد يده، ويضحك. يضحك فى وجهها كأنه لم يفعل شيئا. وتراجع نفسها. تكون فى خلوتها داخل الناموسية وتستعيد الواقعة وترى وجهه الضاحك وتقول ربما لا يقصد. هى فى الحوش. أمامها طست الغسيل. ساقها ممدودة. الأخرى مثنية انحسر عنها الجلباب. منحنية تدعك الهدوم. تحس به. متى جاء؟. يقف ساكنا محدقا إلى فخذها العارية. مأخوذة تنظر إليه. عيناه الزائغتان. أنفاسه اللاهثة. والصوت. حشرجة تفلت من حلقه. انتبهت أخيرا لفخذها العارية، وسحبت فوقها الجلباب، يرمقها لحظة صامتا ثم يندفع خارجا. بعدها. آه بعدها. حين ينظر إليها. وكأنما يترقب ما يتعرى منها فى قيامها أو قعودها. ويكثر مجيئه. اى وقت. ما أن يراها أو يرى الباب مفتوحا.

وتسأله لم لم يذهب مع أبيه؟

ويقول: لا يريدنى معه.

لا تصدقه. ترى زوجها ساعة الصبح ومعه الحمارة يتلفت باحثا عنه، مناديا، ثم يمضى وحده.

ويقترب منها محاولا أن يلامسها، هى فى حيرتها تبتعد وتقول ما يخطر لها من كلام. تتردد فى مواجهته. تخشى لو فعلت أن يتجرأ أكثر عليها. ومرات حين تقعد على المصطبة يأتى ويجلس، لا يقترب منها. ساكتا لا يتكلم. يلعب بقطع حجارة. يرصها ويعيد رصها. ونسوة أمام بيوتهن، وعيال تذهب وتأتى. وتنبهه إلى أن هناك من يناديه.

ويقول: آه. سامع

وتختلس النظر إليه وقد كف عن اللعب، تفاجأ بعينيه على وجهها، ينتابها الضيق، يخجلها مغادرة المكان فجأة، تنفض فى عنف نملا يزحف على جلبابها، هو فى جلسته لا يغيرها. تقول لنفسها أنها لم تعد تستطيع أن تجلس وحدها فى مكان، حتى المصطبة وفى عز النهار والناس تذهب وتأتى، تنحنى لتعدل فردة الشبشب المقلوبة، ويخطر لها أن تمضى، وتمضى. حتى كان يوم، وكانت فى الحوش وجاء، وقف بجوارها ووضع يده على كتفها كعادته، رغم ذلك توتر جسدها، ظلت فى وقفتها ساكنة مترقبة، يده تنزلق على ظهرها، تتوقف لحظة ثم تستمر، وكأنه لا يقصد، ويتكلم، آه يحكى، لا تدرى ما يحكيه، وماذا أسكتها يومها؟ أكانت تتأكد من ظنونها؟ رعشة يده وهى تنحدر. تضغط ظهرها خفيفا، تتلمس طريقها فى حذر، ثم يختفى الحذر، حركتها واضحة حتى استقرت على عجيزتها. زجرته فى عنف. ارتد خطوة.

- أيه يا خالة. أيه.

تلوم نفسها فى رقدتها داخل الناموسية، مستعيدة رعشة يده على ظهرها، تحس سخونتها وعرقها، محدقة إلى السماء والنجوم خلال الشباك المفتوح، والسكون يترامى، ونقيق ضفادع، ونعير بهيمة على بعد، لو أنها تجاهلت الأمر كما فعلت من قبل وابتعدت عن يده وهى على كتفها؟ الآن وقد وصلت يده إلى عجيزتها وقالت له ما قالت ربما تجرأ أكثر عليها. تغمغم والنعاس يثقل عليها من يدرى، ربما راحت ظنونها بعيدا، وجهه حين نظرت إليه، لا يقصد شيئا، ودهشته، وذعره، حتى انها تراجعت سريعا، لا يفعل ذلك واحد فى عمره.

يوقظها قبل ان تروح فى النوم صوت احتكاك بالجدار أسفل الشباك. تتذكر العنزة التى نسيتها فى الخارج، تبحث عن شبشبها، تنتبه وهى بالباب أنها بقميصها الداخلى، ذراعاها العاريتان، وابطاها، وساقاها أيضا إلى ما فوق ركبتيها بقليل، القميص القصير، تلبسه عندما كان زوجها يأتى. ولم يعد يأتى. لو رآها أحد؟ يستخفها مرح، تختلس النظر هنا وهناك وتخرج. البيوت مطفأة الأنوار، مستغرقة فى نعاسها تخطو فى حذر. نشوة هادئة تسرى فى جسدها. تتنفس فى عمق. بيت ضرتها على مرمى البصر. الباب مغلق، والحصيرة المهترئة على المصطبة، والكلب مقطوع الأذن يرقد فوقها ساكنا، والجوزة فى الركن، تستدير إلى خلف بيتها، العنزة لصق الجدار، قعدت على حجر بجوارها، أحواض البرسيم مالت أطرافها مع اتجاه الريح الخفيفة، مستندة بكوعيها على فخذيها، تتحسس ضفيرتها المرتخية على صدرها، وترمق أشجارا كثيفة على بعد، تستقبل

فى شغف نسمات الهواء الباردة، تحس بها داخل قميصها ترطب جسدها، بطنها، فخذيها، تكاد تستسلم لعذوبتها مسبلة عينيها، تفيق فجأة فيما يشبه الذعر، تضم ساقيها المنفرجتين متلفتة حولها، تتحسس رقبة العنزة وفمها، تنهض فى تكاسل، تمضى بها إلى الدار، الجوع الذى تحسه رغم انها تناولت عشاءها، ترفع شعلة المصباح، تتذكر طبق "عاشورة" أبقته لزوجها، سيبرطم ويشتم حين يأتى فى الصباح ولا يجده، ويظل أياما لا يقرب بيتها، الساعة التى يقعدها على المصطبة يشرب الشاى ويمضى. متربعة على الحصيرة فى الحوش تلتهم الطبق، وتحس أنها مازالت جائعة، وماذا لديها؟ عيش وجبن قديم. لا شىء آخر. بيض؟ لا تحبه. يقلب معدتها. جبن قديم فى نص الليل؟ من يتحمله؟ تضحك وقد خطر لها أن تذبح فرخة. يلح الخاطر، تكاد تشعر بمذاق الفرخة فى فمها، تندفع فى حماس صاخب تتعجب له، تمسح دموعا طفرت من عينيها، تنحنى وتشعل الموقد. وزوجها؟ ماذا يقول؟. تذبح فرخة صغيرة، تنظفها وتضعها على النار، كم مرة رأته يعدّ البط والفراخ والأرانب، ويحفظ عددها، ترك لها البيض تتصرف فيه، رغم ذلك كانت من حين لآخر تختلس فرخة وتبيعها فى الخفاء، وحين يسأل عنها تشككه فى العدد الذى يحفظه، حتى كانت مرة قال لها:

- العدد محفور فى دماغى. أقوله لنفسى كل صبح وقبل ما أنام

وتشاجرا يومها وصاحت:

- فراخى وأنا حرة فيها. اشترتها بفلوسى.

- فلوسك؟

- آه فلوسى. أبيع الفرختين وأشترى كتاكيت أربيها. طلبت منك حاجة؟

- تقولى لى.

آه. أقول له. يمر فى الصباح، يطل برأسه، وتكون فى الحوش:

- فيه زفر؟

- منين.

- اذبحى بطة. فرخة. الواحد يصلب عوده.

يصلب عوده ويذهب إليها. طيب. سارت إلى الحجرة. مرت بمرآة الدولاب ثم عادت، زمن طويل لم تقف أمامها، وأين راحة البال حتى تنظر لنفسها. تتحسس الضفيرة الممتلئة، تهزها، تنقلها من كتف لآخر، تشد القميص حولها، تتأمل جنبيها، تعطى ظهرها للمرآة، تتحسس استدارة ردفيها، "أيه يا فردوس اللى جرى لك" تضحك، تشمر القميص عن فخذيها، ما من مرة وقفت بجوار زوجها إلا ومد يده يتحسس ساقها، وترتفع يده، تنحنى على نفسها مبتعدة، ويجذبها إلى الحصير فى الحوش، حتى والباب مفتوح، وتقول له أن الحصير يوجعها، وتفلت منه، فكت ضفيرتها وجاءت بمشط، فردت شعرها ونثرته على كتفيها. خمس سنوات عمر زواجها، السنة ونصف الأولى لم يفارقها ليلة. يقول:

- حاتموتينى.

قال لها يوما أن أول ما رآه منها فى بيت أهلها كان ساقيها. لم ير مثل حلاوتهما، مخروطتان، إنما ما شاء اللـه، وسألته:

- وشفت أيه كمان؟

- شفت كتير.

- أيه؟

- ده

ودس يده فى صدرها، أبعدتها وقالت:

- الجلابية يومها كانت بياقة مقفولة.

ويحملها على ظهره ويصعد بها إلى السطح. وتقول له:

- اطلع وأنا بعدك.

- لأ. أشيلك.

- ولو شافنا حد؟

- الدنيا ليل.

استطاعت أن تسحب ملاءة السرير معها، ووقعت المخدة يومها على صينية الشاى وربنا ستر كانت الأكواب فارغة. لم يمد يده عليها أبدا. مهما فعلت. وماذا فعلت حتى يمد يده؟ ويوم اكتشف أنها تبيع الفراخ من ورائه تقدم نحوها وبدا أنه سيضربها، ولم يضربها. توقف قبل أن يصل إليها، ونفخ متلفتا حوله وسكت. وتسمع صراخ ضرتها حين ينهال عليها،حتى صوت الضربات وشتائمه تسمعها. وتراه خارجا مندفعا من الباب هناك يبرطم وصوت ضرتها يلاحقه بالتهديد واللعنات، ويزمجر عائدا إليها. هو يعرف أنها بخلاف ضرتها، وبخلافهن فى العزبة، تربتْ فى البلدة، وذهبت إلى المدرسة فى صغرها حتى نهاية المرحلة الأولية. وطول عمرها فى البيت. أبوها تاجر الحبوب. كانوا كلهم فى العزبة يعرفونه. ما من واحد فيها إلا وباع له واقترض منه. زوجها أيضا. ولولا أخوها ما وصل إليها ولا عرفها.رأته يوم جاء لخطبتها يجلس مقرفصا جنب الحائط، وأخوها على مقعد بجواره،وبعد زواجها أجر له أخوها فدانين مزارعة، واشترى سبعة عجول وأعطاها له لتربيتها مناصفة. هى أيضا. من جانبها

لم تقصر يوما فى حقه. يعود ساعة العصر، يجد الغيار والجلباب النظيف، واللقمة الساخنة، الزفر الذى يحبه، حايلته طويلا حتى يستحم قبل أن يصعد إلى السرير، لا يتحمس للاستحمام. يقول ساخطا:

- ضرورى؟

يخطر لها أحيانا أن تذهب إليه فى الغيط، تحمل المقطف على رأسها وتذهب، تلمحه وسط الزرع مع آخرين، ومرات غائصا فى طين القنوات، تقف أمام العشة على جانب الطريق حتى يلتفت. ويراها، ثم تدخل وتنتظره. النسمة الطرية داخل العشة، جوانبها مضفرة بالغاب وأعواد الذرة الجافة، فجوات كثيرة بينها يتسلل منها ضوء النهار. يقول قبل أن يدخل:

- المشوار طويل عليك يا فردوس.

- لا طويل ولا حاجة.

عادة يأتى مع واحد من أصحابه، تخرج لهما الأكل من المقطف.

يقول صاحبه: مدى ايدك

ورغم جوعها تقول أنها أكلت قبل أن تأتى.

وتمضى إلى خلف العشة حيث مجرى الماء لتعد الشاى.

المرة التى كانا فيها وحدهما حملت الحلتين بعد الأكل إلى المجرى، غسلت يديها ووضعت براد الشاى فى الراكية وعادت. كان راقدا على جنبه، مسح يديه وفمه بعودين قش، نظر إليها ثم أمسك قدمها وسحبها إليه، خلصت قدمها من قبضته وابتعدت، أمسكها مرة أخرى من ساقها، عافرت حتى أفلتت منه:

- بطينك وزفارتك يا موافى؟

انطلقت إلى الخارج، نفضت ما علق بجلبابها من قش، شتمها، ردت الشتمة بشتمتين، سارت عائدة والمقطف على رأسها. ضحكت فى سرها، تمايل جسدها خفيفا فى مشيتها على السكة، "كل حاجة ولها أصول"، ضحكت مرة أخرى، ويغضب، المرة الوحيدة التى غضب فيها خلال العام ونصف وذهب إلى البيت الآخر، أغلقت على نفسها الباب وقالت: ومن يسأل فيه"، يومان. وفى الثالث جاء. هى فى قعدتها على العتبة، مر بها ثم عاد، تخطى ساقيها الممدودتين إلى الداخل وسأل أن كان لديها ما يؤكل؟. لم ترد عليه، وقامت لتعد له الغذاء.

جمعت شعرها من الخلف بشريط كما كانت تفعل أيام المدرسة، تأملت نفسها قليلا ثم فكت الشريط ونثرت شعرها مرة أخرى، وضعت كحلا فى عينيها، جاء الكحل ثقيلا، غسلتهما وعادت للمرآة،يدها متمهلة، تخط الكحل فى لمسة خفيفة بين جفنيها، يكاد وجهها يلتصق بالمرآة، لو أن لديها مرآة صغيرة، تقعد بها وتكون على راحتها، والحاجبان أيضا، عام ونصف، وكانت تدفعه للذهاب إلى البيت الآخر، ويتكاسل. وتلح عليه:

- أولادك يا موافى. تبص عليهم.

ويقول: ما لهم أولادى؟

ثم يذهب إليهم، هى حريصة أن يلبس الجلباب النظيف والشال حول رقبته. ينظر إليها متعجبا، تقول:- "أيه. موش عريس؟»

- عريس؟

وكأنه لم يتزوج من أسبوعين.

توارب الباب قليلا وتنظر إليه، تراه قاعدا على المصطبة والبنات حوله، وسعد واقفا، لا ترى ضرتها، تجلس فى الجانب البعيد عن عينيها، تلمحه يكلمها، ابنته الثالثة، نوال، كانت تحبو وقتها، أحب أولاده إليها، والرابعة مازالت فى الغيب، تحبو نوال بين ساقيه وتتسلق بطنه، مؤخرتها العارية المتربة، تقول لنفسها "ستوسخ له الجلباب"، يأخذ جلسته معهم، يشرب الشاى ويدخن الجوزة ويمضى، حتى كانت مرة ذهبت إليهم، لبست جلبابا جديدا والشبشب، كان قد مر شهر وأسبوع على زواجها ولم تتزاورا، ولا رأت الواحدة منهما الأخرى، مشت وكأنما تقصد مكانا آخر، ناداها زوجها، استدارت، ظلت فى وقفتها حتى أشار لها أن تأتى إليهم، هى تعرف البنات وسعد، جاءوا مرات إلى بيتها، رغم ذلك وقفت البنتان تنظران إليها فى فضول، امرأته فى ركن المصطبة ترضع نوال التى أفلتت الثدى واستدارت ترمقها وذراعاها مرفوعتان ليحملها أحدهم، اختطفت نظرة أخرى إلى ضرتها، تجلس مستندة بظهرها للجدار، ساقاها الممدوتان المنفرجتان قليلا، جلبابها المتسخ، شعرها المنكوش، ثديها الضخم العارى مسترخيا فوق بطنها، تنبثق من حلمته قطرات اللبن وتسيل على جلبابها، لم تنهض، وبدا أنها لن تمد يدا لتسلم عليها، عيناها فقط كل ما تحرك فيها، نظرت إليها من فوق لتحت، وظل وجهها ساكنا لا ينبئ بشىء، أفسح زوجها مكانا فجلست بجواره على طرف المصطبة محاولة ألا تلتصق به.

سألها زوجها: على فين؟

وقالت أنها ذاهبة إلى الدكان لتشترى سكر.

ولا كانت ذاهبة إلى دكان ولا غيره، وعندها ما يكفيها من السكر، عادا إلى كلام قطعه مجيئها، تحكى له أخبار ناس

يعرفانهم، هى لم تسمع عنهم من قبل، لابد أنهم من خارج العزبة، البنتان أيضا تحكيان، ينصت لهم ويسأل وكأنه كان فى غيبة طويلة، تابعت كلامهم قليلا ثم انتبهت للطفلة وكانت تنزلق فوق السيقان الممدودة والمتشابكة لتصل إليها، فى كل مرة تقترب تسحبها يد أمها من ظهر الجلباب دون أن تلتفت أو تتوقف عن الكلام وكأنها لا تقصد وتعيدها بين ساقيها، لم يحدث أبدا أن تخاصمتا أو تبادلتا كلاما مسيئا، غير أنها أحست من أول مرة تلتقيان أنهما لن تتصاحبا أبدا.

وذهبت مرة أخرى بعد زواجها بخمسة شهور، لم يأت زوجها كعادته ساعة العصر، وقرب المغرب وقفت بالعتبة وألقت بنظرها إلى هناك، لمحت قدميه الممدودتين خارج المصطبة، هذه المرة كانت تريد شراء زيت، حملت الزجاجة الفارغة وخرجت، تسير على بعد من المصطبة وكادت تتجاوزهم عندما سمعت زوجها يناديها، عادت إليهم، من النظرة الأولى عرفت انهما كانا نائمين معا وقت القيلولة، وجه زوجها الذى حفظت كل تغيراته، شاربه المرتخى، وشفتاه المضمومتان فى حركتهما وكأنما يستطعم شيئا فى فمه، ويده التى تهرش بين فخذيه، هو لا يغتسل بعد المضاجعة، يتركها للصدفة أو لحين موعد الصلاة التى ينسى دائما موعدها، لا تعرف عادات امرأته، غير أن وجهها المغسول، وآثار النوم العميق، وشعرها الممشط، هى التى كانت تعمل ألف حساب لهذه اللحظة لم تحس غضبا ولا غيرة، هادئة تنظر إليهما، وتجلس حيث أشار زوجها، وتجيب على سؤاله:

- آه. زيت.

وينادى على ابنته لتشترى لها الزيت، وتعطى البنت النقود،

والبنت تحمل الطفلة على جنبها وتمضى، يرقد مسترخيا متكئا على كوعه وقفاه لامرأته، نفس قعدتها السابقة، ساقاها الممدودتان منفرجتان، تلتصق إحداهما بظهره، لا يبدو أن مجيئها غير شيئا عند ضرتها، تجلس على راحتها، تنفض نملا عن كتف الصديرى الذي يلبسه على فانلة بنية اللون، ولباسه الواسع حتى الركبة، وتنحنى تنظر داخل البيت منادية ابنتها لتأيتها بخيط وابرة، وتنحنى مرة أخرى وقد تذكرت شيئا وتصيح:

- والشاى يا بت. بتعملى أيه عندك؟

تأيتها البنت بالأبرة والخيط، وتهرول عائدة إلى الداخل يتبعها صوت أمها:

- أبوك له ساعة مستنى الشاى.

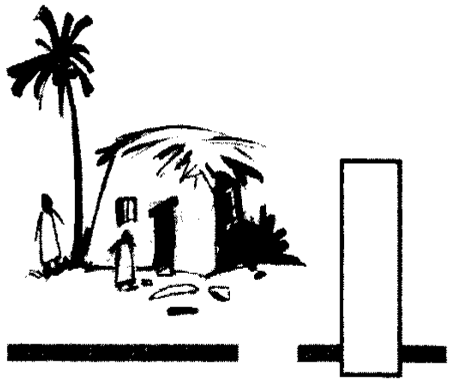
تخيط مزقا فى ظهر الصديرى، وتنحنى تقضم الخيط بأسنانها، ثم تضربه على كتفه، يعتدل بعدها فى جلسته.

الألم الخفيف بعينيها من أثر الكحل، تدمعان، خيطان رفيعان أسودان يسيلان على خديها، تحدق فى المرآة تتأمل مسارهما، تعصر عينيها لتغذيهما بدمعات جديدة، آه. كانوا يأتون. ويلقاهم، ويأتون فى غيابه، يسألون عنه، البنتان وسعد، والثالثة تحبو وراءهم، الرابعة فى الغيب، يقفون بمدخل الحوش ويواربون الباب خلفهم كأنما يخشون أن يراهم احد عندها، البنتان متعجلتان تسألان عنه فى وقت واحد، سعد أكبرهم يتحرك فى تثاقل ويقف مائلا بكتفه للحائط، ينظر إليها ولا يسأل، الطفلة تحبو نحوها، تمسك بساقيها وتحاول الوقوف، بيتها لا يخلو من الشىء الحلو. أرز بلبن، مهلبية، زلابية، يتناولون أطباقهم جالسين على الحصير فى الحوش، هى تطعم الطفلة التى تشب على ركبتيها وتصرخ بعد كل ملعقة تطلب المزيد، البنتان تستعدان للخروج،

تنتظران فى نفاد صبر أن تنتهى الطفلة، سعد هادئ يتناول طبقه متمهلا، ويأتى يوم وينقطع مجئ البنتين، لم تعد تراهما إلا فى الشارع أو على مصطبتهم، سعد يأتى، الطفلة. نوال. ما أن تسهو عنها أختها أثناء لعبها حتى تحبو إلى بيتها، تنزلق على العتبة وتصيح تناديها "ف.ف"، كانوا قبل أن يبحثوا عنها يأتون إليها، ويجدونها عندها.

مسحت الكحل عن خديها بقماشة مبللة، ثم أزالته عن عينيها وحاجبيها، وراحت تعيد تضفير شعرها، ومن يتحمله سائبا، عام ونصف، ثم بدأ يغيب، يغيب بالأسبوع ويأتى، يقضى ليلة ويمضى، والأسبوع امتد لأسبوعين ويقول "أم عياله عملت كذا وقالت كذا" هى ساكتة تسمع ولا تتكلم، ولا تلومه لغيابه، والأسبوعان يمدان لشهر، يمر بها ويأخذ قعدته على المصطبة ويمضى، وما يعجبه فيها؟ خمس بطون حتى تهدل جسمها وشاخ، وابتعاده عنها؟ وكأنها لم تكن كل حاجة عنده. هى لا تصدق فى الأحجبة والأعمال، يخطر لها أحيانا أنها الخلفة، عام ونصف وحين لم تظهر بشائر عاد إليها هناك، كانت يده تتحسس بطنها فى ظلمة الليل بعد مضاجعتها، وتستقر عليها ويروح فى النوم.

مضت إلى الموقد، رائحة الفرخة المسلوقة، والبخار ينفذ فى حفيف ناعم من تحت غطاء الحلة، حملتها إلى النملية وأطفأت النار، ثم ذهبت لتنام.



وكانت منحنية تكنس الحوش فى الصباح حين أحست بمن يحجب الضوء عند الباب، وقالت انه هو. لمحته قاعدا على العتبة وساقاه للداخل وبينهما فرع شجرة، كان يحدق صامتا إلى صدرها وقد بدا من فتحة الجلباب خلال انحنائها، اعتدلت مزمجرة وأغلقت صدر الجلباب، جسدها الذى توتر وهى تكنس.

قال: يا خالة. لا تطردينى.

لمحت طرف عصاه تروح وتأتى على أرض الحوش ترسم خطوطا متعرجة، لا تستريح لقعدته هناك وعيناه عليها طول الوقت.

دق بعصاه الأرض بين قدميه، رمت ضفيرتها إلى كتفها، انتبهت إلى جلبابها القصير وانحناءتها وظهرها له، قرفصت على عقبيها بدلا من الانحناء وكان ذلك يوجع ركبتيها حين تنهض.

قال انه ذاهب ليصيد وسيأتيها بالقراميط التى تحبها.

أخرج مطواة من جيبه وراح يكشط فرع الشجرة، واقفة تنظر إليه وتقول فى سرها "حايوسخ الحوش بعدما كنسته».

قال وعيناه على وجهها: عارف انك تحبينها.

يضحك: سأعطى أمى السمك وأنت القراميط. وأتعشى عندك.

ملأت حلة بالماء وبدأت رش الأرض من الناحية الأخرى.

قال : لم تسألينى من أين أصيدها؟

وقال: عارف أنك لن تسألى. وعارف انك ستطردينى لو قربت منك».

من دهشتها لجرأته فى الكلام التفتت إليه، ورأته قادما نحوها، وضعت الحلة على الأرض، جففت يديها فى الجلباب، تلك اللحظة التى لن تنساها أبدا، هى واقفة متأهبة لمجيئه، تنظر إليه وكأنما لم تره من زمن، وكأنه غير سعد الذى عرفته، كبر فى غفلة منها، شاربه الخفيف، حاجباه الكثيفان، ملامح رجولة مبكرة تتبدى فى قسمات وجهه، عضلات صدره التى ظهرت من ياقة الجلباب المفتوحة على سعتها، وقف على بعد خطوتين مستندا إلى عصاه، هل لانت تكشيرة وجهها؟ يضحك متحسسا قفاه.

- سأصيدها من مكان لا يعرفه غيرى فى العزبة.

يمد يده يمسك ضفيرتها. تزيح يده بعيدا. يقول:

- رأيته صدفة من يومين. مليان سمك وقراميط. سأنزحه. أسده وأنزح منه الماء. اعطنى صفيحتك القديمة أنزح بها.

ترددت لحظة ثم استدارت إلى ركن الحوش البعيد حيث تجمع الكراكيب، تمشى فى بطء مرهفة أذنها، تخشى أن يفاجئها من الخلف، عادت بالصفيحة، أخذها وخرج.

عاد فى الظهيرة، وقف بفتحة الباب، الجلباب مشمور عن ساقيه، وحجره ممتلئ، والصفيحة على كتفه، دلق ما بها من قراميط فى الحوش ومضى، كتمت ضحكتها وهى تتبع القراميط

التى تتلوى هاربة فى أنحاء الحوش.

جاء على العشاء مع أبيه، وضعت الطبلية على الحصيرة وفوقها حلة الأرز المطبوخ بالبصل المحمر وطاجن القراميط الكبير، يتناول زوجها رؤوسها التى يحب مصمصتها، يأكل فى نهم وصمت منكفئا على الطبلية، ويخرج من الطاجن القطع الكبيرة ويضعها أمام ابنه، هى متربعة تأكل فى مهل، انتبهت للقدم التى تتحسس قدمها تحت الطبلية والأصابع التى تطبق على اصبع قدمها الكبيرة، ومن أين له بتلك الأفعال؟ ربما التلفزيون الذى يسهر أمامه فى المقهى، أو السينما التى يمشى إليها فى البلد. لمت قدميها تحت ساقيها، سكوتها على ما يبدو شجعه، مد يده فى سرعة خاطفة وقرصها خفيفا فى فخذها، توقفت الملعقة فى يدها، التفتت إليه تكاد تنفجر من الغضب، أحنى رأسه متحاشيا نظرتها، هدأت بعد لحظة، سحبت ساقيها من تحت الطبلية، قعدت مائلة بجنبها وساقاها ممدودتان بعيدا، نظر إليها زوجها متعجبا:

- ماتتربعى؟

وتقول أن ركبتها تؤلمها.

ما أن يسكت جوعه قليلا حتى ينتبه لما حوله ويأخذ فى الكلام، سأل ابنه من أين جاء بها؟

وصف ابنه المكان.

قال زوجها انه بعيد، ولا يخطر لأحد أنه به كل هذا السمك، صمت قليلا ثم سأل:-

- ونزحتها؟

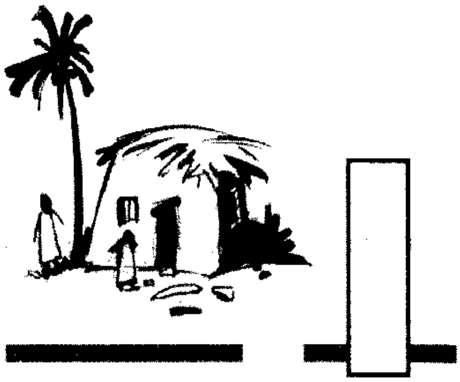
- آه نزحتها.

تصب عليهما الماء والفوطة على كتفها، حين جاء دوره غسل

يديه أكثر من مرة، طول الوقت يرفع عينيه لينظر إليها، تتحاشى نظرته، فى النهاية رمت الفوطة على كتفه ومضت إلى الموقد لتعد الشاى.

استرخيا فى قعدتهما على الحصيرة والكتف فى الكتف، وضعت أمامهما صينية الشاى ووعاء به جمرات وناولت غابة الجوزة لزوجها، يتبادلانها ويثرثران، كانت منحنية مرتكزة على ركبتيها تجمع بكفها ما تناثر من أكل على الحصيرة، مد زوجها يده يتحسس مؤخرتها، ضحك ابنه، نهضت فى ضيق مبتعدة، جلست على العتبة.

* * *



تصحو فى الفجر، اعتادت ذلك منذ كانت فى بيت أبيها، تنهى أعمالها سريعا، وتطعم دواجنها التى تسقبلها فى صخب ترد عليه بمرح وكلمات تدليل، الديك الذى يصيح ويضرب بجناحيه مهللا لدى مجيئها، رفضت أكثر من مرة أن تذبحه رغم الحاح زوجها، يقفز ويستكين فى حجرها، تقبل عرفه وتطعمه من كفها، تخصه بقطعة خبز مبتلة تمدها إليهه بشفتيها فيلتقطها بمنقاره.

ترى غبشة ضوء الفجر تتسلل من تحت عقب الباب، تواربه قليلا، تعد فرشتها على العتبة من الداخل، يحلو لها أن ترقب العزبة فى صحوتها الباكرة، من كثرة ما راقبتها تعرف مقدما ما ستراه، تتخيلها دائما مثلها تتمطى وتتثاءب ثم تنفض الغطاء. تلمح أول ما تلمح دخانا يتصاعد من بيت عشماوى الصياد، عيناها على السطح فى انتظاره، منتصفه تماما حيث فتحة منور السلم، يخرج سرسوب رفيع من الدخان لونه أزرق، تهتز قدماها خفيفا لدى رؤيته، تهمس فى بهجة.

- آه.. صحوا

ثم يتدفق الدخان كثيفا بلون السحب القاتمة، بعدها بقليل

يتصاعد الدخان من البيوت الأخرى، تلمح بطرف عينها الدخان يخرج أخيرا من بيت ضرتها، ولا تلتفت إليه بعد ذلك، تسمع سعلة عشماوى الصياد، وتراه عن بعد قادما يخترق الوسعاية وشبكة الصيد والمقطف على كتفه، يلبس سترة ميرى مازالت على كتفيها علامات عسكرية، ويلف فخذيه بخرقة، حين يقترب من بيتها تسمع شخشخة قطع الرصاص بشبكة الصيد، يمضى لا يلتفت هنا أو هناك، كان يصيد بعيدا مع امتداد النهر. تظهر أسراب البط والوز، مجموعة بعد الأخرى فى طريقها إلى مجرى الماء، هى أيضا لا تلتفت شمالا أو يمينا، تهز قدميها طربا، تكاد الضحكة تفلت منها، تنتظر أن تسمع صياحه، غير أنه يستمر فى مشيته الوقور المتهادية يقوده ذكر من الوز، كان وحده يفرد جناحيه قليلا ثم يطويهما دون صوت، تقول لها النسوة لم لا تطلقين بطك معها، هى لا تتحمس لذلك، ترى بعض النسوة بعد المغرب يسألن من بيت لبيت ان كان بطهن قد جاء خطأ إليهم، يعثرن عليه فى النهاية بأحد البيوت، وتكون أنفاسهن انقطعت من اللف والدوران، يقلن لها:

- وماله يا أختى. المشى حلو. تشوفى الناس. تمسى عليهم، تقولى كلمتين. وتسمعى كلمتين. وتمشى.

تسمع ما يقلنه ولا تفهمه، هى التى عاشت داخل بيت لا تخرج منه حتى بلغت الثلاثين تحس أنه ينقصها الكثير لتتعلمه، تنقشع الظلمة قليلا وتبين معالم الأشياء، وتلمح نسوة يخرجن من الأزقة، أصواتهن خافتة، يحملن الهدوم والمواعين، يتلاقين عند نهاية الوسعاية، يتخذن، طريقهن إلى مجرى الماء، ترد ضلفة الباب حين يقتربن حتى تكاد تغلقه، لا ترغب أن يرينها

ويتهامسن عن صحيانها المبكر، وعندما يبتعدن توارب الباب مرة أخرى، ويسألنها لم لا تأتى معهن، وتقول انه ليس لديها ما يحتاج الغسيل، ويقلن على الأقل تستحمين معنا. الماء فى هذا الوقت لم يتعكر بعد، البعض منهن يلبسن الجلباب على اللحم، يُغطسن أجسادهن وقد شمرن الجلابيب حتى أكتافهن، فرحات بملمس المياه الباردة، ويسألنها ان كانت استحمت فى النهر؟ هى لم تر النهر فى حياتها غير ثلاث مرات، كانت ترافق أمها فيها إلى المستشفى، تستريح أمها فى ظل شجرة على الشط وتقف بجوارها، تلقى حجرا أو اثنين فى النهر. قالت له انها استحمت مرة. ولم قالت ذلك؟ ربما أرادت أن تبدو مثل غيرها، وربما كانت تسايره فى الكلام، كثيرا ما فعلت ذلك معه، تقول له كلاما لمجرد الكلام، وعندما انتبهت لمحاولاته معها أمسكت لسانها، ويوم وجد الباب مفتوحا ودخل، وتمدد على الحصير فى الحوش غير بعيد عنها، تملكها غضب شديد وكادت تشتمه هو وأهله، تقشر بطاطس، استمرت تقشرها، ساقها ممدودة تعرت حتى الركبة، تركتها ممدودة،، متكئ على كوعه يهز قدميه، يقول انه لن يخرج مهما فعلت.

ولا ترد عليه.

ويقول انه يعرف أنها لا تطيقه وهو لا يهمه.

تهدأ قليلا، يهرش ركبته ويستلقى على ظهره، يرفع ساقيه ويطلق صفيرا ثم يعيدهما، ترمقه بطرف عينها، تلمح جرحا حديثا تقيح بفخذه، تنظر مرة أخرى إلى الجرح، تمسك لسانها عن السؤال، ربما بدا على وجهها ما يشى بالتساؤل.

يقول ضاحكا: لن أقول لك. ما دمت تطردينى لن أقول لك.

يرسم بإصبعه دائرة حول الجرح وينظر إليها ويضحك.

ويقول ان أصحابه كانوا يتكلمون عنها وهم يستحمون فى النهر.

ربما لمح يدها عندما توقفت لحظة عن التقشير، تحس بعينيه على وجهها، السؤال كان على طرف لسانها.

يقول: لمْ تسأليني؟

لا ترد.

يتحسس فخذه العارية. يقول:

- لمْ تسأليني عما قالوه؟

ويقول ضاحكا: كنا بنعوم وواحد سأل عن الواحدة اللى نفسنا ننام معها. وقربنا من الشط وقعدنا. يضحك مرة أخرى، يثنى ساقيه ويمدهما:

- كلهم اختاروك. وقالوا انهم لم يروا واحدة فى حلاوتك. وقالوا كلاما آخر أيضا.

تلمحه بطرف عينها يرقب وجهها، بقيت حبتا بطاطس فى الصينية بقشرهما تبطئ فى التقشير.

- قالوا انك فرس. وان أبى غلبان وكان اللـه فى عونه.

هى وقد أخذتها المفاجأة مما قاله تسمع صوتها يتساءل:

- وتركتهم يقولون هذا الكلام؟

- يووه. كلامهم كتير عن النسوان والبنات. ولا سهرة. ولا قعدة. ومن شهرين تلاتة كانوا فى سيرتك.

تكاد تنصرف عنه، تقلب بيدها شرائح البطاطس، تسأل:

- وقالوا أيه؟

- قالوا اللى قالوه.

تذكرت الواقعة، وأين كان صاحبه مختفيا وربما كان هو نفسه، البرسيم لا يخفى أحدا، ولا يوجد شجر خلف البيت ليختفى بين فروعه، والوقت متأخر، ما من أحد غيرها يكون صاحيا.

تنتبه لاصبعه التى وصلت إلى ركبتها، وأصبح الأصبع اصبعين، تتأمل وجهه فى حيرة، ورعشة خفيفة أخذت تسرى فى بدنها.

ويقول: وواحد شافك عند دكان البقالة، كان لابدا جنب المصطبة وأنت ترفعين رجلك لتصعدى، وشاف..

نهرته ليسكت. الخجل الذى أحسته، ولون وجهها؟ ربما اختفى لونه، أو اصفر، فمها الذى انتبهت إلى رعشته، زمت شفتيها، وماذا سيقول أكثر مما قال، يكتم ابتسامته متحاشيا نظرتها وكأن لديه حكايات أخرى، من هم؟ وأين ؟ وطول الوقت يتخفون ويرونها، تسأله:

- وأنت؟

- أنا؟ تعاركت معه - وأشار للجرح فى فخذه - كان معه كعب كوب، وهنا أيضا - وشمر الجلباب إلى وسطه ورأت جرحا آخر متقيحا فى جنبه - وضربته.

عيناها تحدقان فى وجهه، هو صامد لنظرتها، عيناه الواسعتان بصفائهما وما توحيه نظرته من طفولة وكأنه لا يدرى ما فى كلامه من عيب. تسأله، البحة التى ظهرت فى صوتها:

- ولم يجدوا غيرى يمشون وراءها. البنات والنسوان فى المجرى والغيطان وشتل الرز، ويشلحن، لم لا تذهبون وتنظرون إليهن علنا بدلا من التخفى.

يتقلب فى رقدته ثم يستقر على جنبه فى وضعه السابق،

الاصبعان زحفا إلى بطن ركبتها، يقول:

- واحدة تفرق عن واحدة يا خالة.

هى مطرقة تتأمل حبة البطاطس فى يدها ثم اكملت تقشيرها، أصابعه وقد انثنت تستقر فى تجويف ركبتها، مسحت يديها فى طرف جلبابها وأزاحت الصينية قليلا لتنهض، يده تتشبث خفيفا بركبتها، تنترها. غسلت البطاطس وعادت، لم تجده.

تعود النسوة من المجرى والضوء يبزغ فى الأفق، كل شىء مبلل بالندى، الأسطح وأكوام القش فوقها، أبواب البيوت وتراب الوسعاية، ضجة أصواتهن، يثرثرن وقد ذهب عنهن النعاس، وتدب الحركة فى البيوت، سعال الرجال وزعيقهم وصياح الأولاد وخروج البهائم ووقوفها أمام العتبات، وترى البنات الشغيلة يتسربن من الحوارى ويتجمعن على رأس الوسعاية، ثم يسرعن الخطى، كل منهن تحمل لفة غذائها والشرشرة، وستراهن بعد قليل حين يخلفن بيوت العزبة، يسرن على السكة الممتدة مع مجرى الماء وسط الغيطان. بعدهن تظهر عائلة زيدان، الرجل فى المقدمة يسحب البهيمة، خلفه امرأته تحمل مقطفا على رأسها والرضيع على يدها، وولداها بجوارها يدعكان عيونهم بقبضاتهما ليطردا النعاس، وورائهم تتعثر العجوز أم زيدان. ويأتيها صياح زوجها، كانت تسمع صوته منذ بدأت الحركة تدب فى العزبة وتتغافل عنه. هو يتعجلهم فى البيت، طبعه الذى لا تنساه، فى أيام الشغل يركبه عفريت، ولا يطيق حتى نفسه، رى، بذر، تقليب أرض، وخلع أورمات الرز الذى سلخ يديها، وأيام الراحة أيضا كثيرة، بين الموسم والموسم، وفيما مضى كان يحلو له أن

يصحبها ليلقى نظرة على الزرع، يأخذانها مشيا ساعة العصر إلى الغيط، هى بجواره تلبس جلبابا مشجرا من الحرير احتفظت به للزيارات التى لم تقم بها أبدا. من دون الزرع كله كانت تحب نبتة البرسيم الصغيرة المرتعشة، تقبع على شط الحوض تتحسس فى حذر الأوراق الناعمة، تذكرها بالكتاكيت حين تطلقها من القفص، ترقب فى نهم السيقان الرفيعة تنبض دون توقف، لا تحبها حين تكبر وتصبح مثل غيرها من الزرع، ويأتى زوجها، يقرفص بجوارها، ملء كفيه فول أخضر، يتكئ بكوعه على ركبته ليجعل كفيه بينهما، يسأل مشيرا لنبتة البرسيم:

- ما يعجبك فيها؟

- شكلها حلو.

- كله حلو وهو صغير.

لا تسأله عما يقصد، اعتادت أن تسكت عندما تحس بالكلام يقترب من سيرة الخلفة، تخشى أن تفلت منه كلمة، وكان قد مضى ما يكفى من الوقت وهو لا يفارقها ليلة، وتقول لنفسها أن كل شىء نصيب، وكل شىء له أوان، ويخطر لها أنه يريد الولد منها.

المرة التى التقت فيها بضرتها فى الغيط، المرة الأولى والأخيرة، لم تذهب بعدها، كان قد مر ما يقرب من العام ونصف على زواجها، وبدأ زوجها يتردد على البيت الآخر يومان عندها وباقى الأسبوع عندهم، واستمر على هذه الحال شهرين قبل أن يستقر هناك. لم تغضب، ولا تشاجرت، ولا عاتبته بكلمة، فقط كانت حائرة، لا تعرف ما تفعل عندما يأتى اليومين عندها، وتقول أنه من الأفضل أن يبقى هناك.

تفاجأ به داخلا، وتلم ساقيها المفرودتين، وتنظر إليه متعجبة، تمر لحظات قبل أن تستوعب وجوده فى البيت رغم الضجة التى يثيرها لدى دخوله، يقصد دائما كومة الكراكيب فى آخر الحوش يقلب فيها ثم يعود ليقعد جنبها على الحصير ويقول:

- اعملى لنا لقمة.

يوم التقت بضرتها فى الغيط كان يوم جمع القطن، حملت المقطف على رأسها ولا على بالها أى شيء. كان الوقت ضحى، استغربت حين رأت البيت الآخر مغلقا، والكلب ذو الأذن المقطوعة رابض على العتبة، وقالت أنهم لم يصحوا بعد، يومها أيضا لحق بها سعد على السكة، لم تكن انتبهت بعد لمحاولاته معها. مسحة عرق على وجهه، يبدو كأنما صحا مبكرا، وأين كان؟ يعرض عليها أن يحمل المقطف وترفض، صدر جلبابه المفتوح على سعته، أزراره كلها مخلوعة، لمعة جلده تشى بأنه كان يستحم فى النهر، يسير مشدود القامة مبرزا صدره وكأنه يسعى للعراك، يختفى من جنبها ويعود للظهور حاملا فى طاقيته حبات من التوت، يمدها إليها. تقول:

- وسخت الطاقية.

- حا اغسلها.

الخشونة التى تتبدى فى صوته، يكبر بجوارها وعيناها غافلتان، يسألها وكأنه رجلها:

- وفيم ذهابك إلى هناك؟

تسايره، تقول بلهجة مذعنة:

- ومن يأخذ لهم الغذاء.

- بدرى على الغذاء.

- وأنت. لمْ تبكر مع أبيك.
- صحيت. كان عندى مشوار. وأيه فى المقطف؟
- اللى بتحبه. محشى كرنب. وعيش طرى. ومخلل.

كما ظهر فجأة اختفى، ظنته بجوارها، كانت تكلمه ولا تسمع ردا، التفتت ولم تجده.

عندما بلغت الغيط فوجئت بضرتها والبنات هناك. كن بالطرف الآخر من الحوض، والرجال والبنات الشغيلة وزوجها. هى وحدها أمام العشة، دخلت، وضعت مقطفها بجوار مقطف آخر لابد أن ضرتها جاءت به، أزاحت الخرقة التى تغطيه، حلتان كبيرتان فوق بعضهما، كشفت غطاء واحدة منهما، أربع فرخات. يوم جمع القطن، يوم مفترج. حمدت اللـه أنها استمعت إلى جارتها التى نصحتها أن تأخذ زفر معها بدلا من العدس الذى كانت تنوى طبخه، فاليوم غير الأيام الأخرى، قال زوجها حين تجمعوا خارج العشة:

- زيادة خير.

متربعة بجانب مقطفها فى ناحية، وضرتها فى الناحية الأخرى مع مقطفها، لم تتبادلا كلمة. مجرد نظرة خاطفة، تخرج كل منهما ما فى مقطفها وتناوله لزوجها الذى يتصدر الحلقة، يضعه فى الوسط، ويوزع الزفر بنفسه.

عادوا بعدها إلى أحواض القطن،وبقيت وحدهامع المواعين لتغسلها فى المجرى، من بينها مواعين ضرتها، وغسلتها.

كانوا هناك على الجانب الآخر، أكياس القطن مفتوحة على السكة أمام الأحواض. الرجال بين الخطوط يسحبون قففا كبيرة،

والبنات الشغيلة فى حوض آخر معهن ضرتها وابنتاها، الثالثة تجلس بالصغيرة جنب الأكياس على السكة، زوجها ومعه سعد الذى ظهر وقت الغذاء يفرغان القفف فى الأكياس، تتردد فى الذهاب إليهم، تتعثر دائما فى سيرها بين الخطوط، ولا تجيد التقاط القطن من اللوزات، يبقى نصفه داخلها، الرجال يألفون ضرتها، يتكلمون معها على راحتهم ويهزرون، عشرة طويلة، وربما طبعها، هى لا تسعى لذلك، ولا تتحمس له، هم أيضا، لا يزيد كلام الواحد منهم معها عن كلمتين أو ثلاثة ويمضى، تعرف أنهم لا يكرهونها، كل ما قالوه عنها كما سمعت "أنها فى حالها". تقف بجوار الصغيرة تداعبها، وتلتقى عيناها بعينى زوجها وكان يرفع قفة إلى فوهة الكيس. يقول لها:

- اعملى لنا الشاى.

أراحها ذلك. وعادت للعشة.

وترى الرجال قاعدين على جانب السكة بعد أن انتهوا من جمع القطن، والأكياس أغلقت معدة للتحميل على العربات، يدخنون الجوزة ويشربون الشاى للمرة الرابعة، ضرتها وبناتها الثلاث وما لحق بهن من البنات الشغيلة ينتشرن وسط الخطوط فى الأحواض، يسحبن وراءهن زكائب وشكائر، تبحث عيناها عن الصغيرة وتراها فى حجر سعد، كن بين الخطوط يجمعن اللوزات الجافة المغلقة، يفتحنها ويخرجن ما بداخلها من قطن، يدعكنه بين أصابعهن حتى ينتفش، ويلتقطن النتف التى تخلفت باللوزات الأخرى، سمح لها زوجها أن تجمعها لحسابها، وربطات الحطب أيضا، والقش أيام الرز، ربطة بعد ربطة تصعد إلى سطح بيتها، هى لا ينوبها شىء، ولا طلبت لنفسها، وحين تحتاج الحطب

لموقدها تأخذه من جارة لها.

تنفض جلبابها وتتبعهم على السكة، وترى ضرتها فيما بعد أمام البيت هى وبناتها، فرشن حصيرتين وأفرغن ما جمعنه من قطن فى الشكائر والزكائب، ينظفنه مما علق به من قشور وشوائب، لا أحد من التجار الكبار يشترى "البواقى" التى جمعنها، تنتظر مجئ التجار الصغار الذين يتسكعون بين العزب أثناء الموسم، يقف التاجر منهم أمامها، تساومه ويمضى، لا تبيع إلا لثالثهم، يخرج كيس نقوده القماش، يفرده، تقف بجواره أمام عتبة بيتها، وبناتها ونسوة من الجيران يتحلقن حولهما، تتناول النقود ورقة بعد ورقة، زوجها على بعد خطوات لا يتدخل فى المساومة، يعد النقود بعينيه، تبلل طرفى اصبعيها من فمها وتعيد عد النقود، تلفها وتدسها فى صدرها، يتبعها سعد وبناتها إلى داخل البيت. ينحنى زوجها يلتقط نتفة قطن رآها بين قدميه، ينظفها بضربات من ظفر اصبعه ويضعها فى جيب الصديرى.

هم هناك أمام البيت الآخر، تراهم من شق الباب بعد أن ردت الضلفة، زوجها لا يتوقف عن الزعيق، تخرج البنتان أخيرا، تحملان مقطفا فيما بينهما، يأخذه منهما ويرفعه إلى ظهر الحمار، تهرع البنتان إلى الداخل، تعودان ببقجة كبيرة يضعها فوق المقطف، ضرتها على العتبة تقول شيئا، لا يرد عليها، يمتطى الحمار ويمضى، تسوى ضرتها الطرحة حول رأسها وتتبعه، خلفها البنات واحدة وراء الأخرى، يختفون من الوسعاية، يظهر سعد قادما من خلف البيت، يوسع من خطاه ليلحق بهم، يلتفت وينظر نحوها، تكاد ترد الضلفة لتغلق الباب ولا تردها، لابد أنه لمح الفتحة وعرف أنها وراء الباب، وحتى

بعد أن ابتعد كان يلتفت وينظر إليها.

هى فى قعدتها حتى تظهر الشمس، تراها على سعف النخيل العالى خلف بيوت العزبة، وتلمح السعف يتمايل خفيفا وينحنى حين تحط الطيور فوقه، وتفتح البيوت أبوابها، تغلق الباب وتمضى إلى الحجرة، فى كل مرة تنسى أن تتناول فطورها، لا تتذكره إلا وهى تصعد إلى السرير، النوم يثقل عليها، وتقول انها ستتناوله حين تصحو فى الضحى.

* * *



غفت وصحت، تكاد تغفو مرة أخرى. نص الليل. ربما أكثر. تنصت. لا صوت فى الخارج، الكل فى نعاس. العنزة تحت النافذة، نسيت أن تدخلها البيت، كالعادة فاجأها النوم، عليها أن تخرج وتأتى بها، تمد أطرافها فى تكاسل، الوهج الذى يسرى فى جسدها، حتى خداها تحسهما مشتعلتين، ربما ضربة شمس، ومتى كانت فى الشمس؟ نومها المتقطع فى الليل، لها زمن لا تنام ليلة على بعضها. ونومها فى النهار يأتى خطفا، تدلى ساقيها من السرير، تنظر إلى السماء والنجوم من الشباك المفتوح، تثنى ساقيها وتتأملهما، يتبعونها أينما ذهبت، يتلصصون عليها. أصحابه. ومن هم؟ لا تذكر أنها رأته مع أحد. ربما يلتقى بهم بعيدا عن هنا، النهر، السينما فى البلد، التليفزيون فى المقهى، انحنت تلتقط الطرحة من الأرض، حين تنحنى تنسى نفسها، ما أدراها أن هناك من يختبئ ويختلس النظر، مدت يدها خلفها، ذيل القميص مرفوع أكثر من اللازم، نظرت إلى صدرها فى انحناءتها، تقويرة القميص واسعة، ثدياها بارزان، هزة خفيفة

ويفلتان من التقويرة، وربما لوزادت انحناءتها قليلا، تتحسسهما بطرف أصابعها، وطول الوقت ينظرون إليهما وهى لا تدرى. ما كانت تلتفت لكل ذلك، حتى الأماكن التى ذهبت إليها، وما لبسته،فردت الطرحة على كتفيها وصدرها، ترددت أمام الشبشب، يصدر أصواتا أثناء مشيها، ستخرج حافية، تسحب مزلاج الباب فى بطء حتى لايزيق، تخرج منحنية على نفسها، مهما تخفت سيلمحونها، يعرفون أنها ستخرج لتأتى بالعنزة وينتظرون، وربما انتظروا من أول الليل، يلبدون فى أماكن لا تراها، تفرد عودها، النسمة طرية، يتلقاها جسدها الساخن فى نهم، حافية القدمين، هى التى لم تمش يوما حافية، تسير وقتا على طرفى قدميها متمايلة بعودها، تحسه خفيفا لدنا وكأنه فرع شجرة كما قالوا تداعبه الريح، تكاد الضحكة تفلت منها، تزم شفتيها وقد استخفها المرح، يخفق قميصها ويلتصق بجسدها فى مواجهة هبات الهواء، وماذا يرون؟ يكمنون عن قرب أم عن بعد؟ لن تنحنى، ولن تسقط الطرحة عن كتفيها وصدرها، قميصها خفيف يشف عن تقاطيع جسدها، لا يهم، ستجعلهم يلهثون فى مخابئهم ويعضون الأرض، ستأخذ العنزة وتسير بها طويلا، لن تسقيها فى البيت، ولا من القناة القريبة، ستمشى بها حتى مجرى الماء وتقطع أنفاسهم وراءها، نبتة القمح الخضراء، مساحات كبيرة، تسير على الشط بين الأحواض ترافقها العنز، الخلاء الواسع، وأين يتخفون، لا صوت لخطوات وراءها، ولا حركة، ويقول أنهم كانوا منبطحين على طين الشاطئ ويتكلمون عنها، ثلاثة، أربعة، خمسة لم يخبرها بعددهم، تراهم متجاورين، ظهورهم عارية، ينبشون الطين بأصابعهم وأقدامهم تضرب الماء ولا يحلو

لهم الكلام إلا عنها، همس، وضحكات، ظهورهم الملساء الناعمة يتناثر عليها الرذاذ، ومؤخراتهم العارية، وربما أخذت واحدا منهم النشوة والحماس، تفلت منه الصيحة متقلبا فى الطين، وربما تبعه الآخرون، الخفقة فى صدرها، تنهج وكأنما جرت طويلا، تتعثر فى مشيتها، تتوقف، مقود العنزة كان بيدها، وأين راح؟ تلتفت، العنزة هناك بعيدا، دست رأسها داخل الحوض تقضم نبتة القمح، عادت إليها، انحنت تجذب رأسها من داخل الحوض، علقت الطرحة بقرينها وانزلقت على عينيها، هزت رأسها فى عنف وسحبت معها الطرحة، انحنت تخلصها، وأين هم الآن؟ فردت الطرحة ونفضتها، الأشجار بعيدة وأسطح البيوت، لا مكان آخر حولها يختبئون فيه، وما أدراها، ربما فى بطن القنوات الجافة المنتشرة بين الأحواض؟ انحنت خطفا، مدت ساقها فى انحناءتها وراءها، الرعشة التى سرت فى جسدها، وعيناها الغائمتان، ترى كل ما حولها مهزوزا، سرعان ما اعتدلت فى وقفتها حين أحست بعيونهم تلتهمها.

تخلص القمر أخيرا من غمامة ثقيلة كانت تلاحقه، سطع ضوؤه،وبانت المساحات الشاسعة من الزرع الأخضر، مستطيلات متجاورة، تحدها عن بعد أشجار كثيفة الأغصان، السكون حولها، تنتبه فجأة وكأنها كانت فى غفوة، ابتعدت كثيرا عن البيوت ومجرى الماء، ولو صحا أحد من العزبة لسبب ما ورآها؟ ماذا سيقول عنها؟

استدارت عائدة، التعب الذى حل بها فجأة، خطواتها الواهنة،

تنقل قدميها فى حذر على الشط الرفيع، لسعة برد اقشعر لها جسدها، تدخل البيت وتغلقه وراءها، تكتفى بغسل قدميها من الطين، غدا تشطف نفسها بماء ساخن، تسترخى فى السرير، تغفو.

* * *



شهقت وانتفضت جالسة، ضوء الصباح الباكر ينفذ من فتحات شيش الشباك، عندما وعت انها بحجرتها تنهدت فى عمق وعادت للرقاد، تستعيد الحلم الذى أيقظها، جسدها مبلل بالعرق، قطراته تنزلق حول رقبتها، شاطئ النهر، البقعة التى لم ترها أبدا، ولا فكرت فى الذهاب إليها منذ جاءت إلى العزبة، هى بقميصها القصير، كتفاها عاريتان، القميص مترب عند مقعدتها، شعرها سائب يبعثره الهواء، وطرحتها؟ أين ؟ تحدق فى المشهد باحثة عنها ولا تراها، ثم تراها عالقة بفرع شجرة تميل على النهر، وما رمى بها هناك؟ تخشى أن تتمزق من نتوءات الفرع والهواء يطوحها، تختفى الطرحة من المشهد، وترى العنزة على بطن الشاطئ، هى قلقة، تعود بنظرها إلى الطرحة، المزق فى منتصفها بطول الشبر وطرفها يخفق بين الفروع، تهبط الشاطئ لتسحب العنزة، تغوص قدماها فى حفر يملأها الوحل، صوت

البقبقة، فقاقيع صغيرة تظهر على السطح وتختفى، هى عارية على الشاطئ، يدها خالية، تتأمل أصابعها، الجلد قاتم مكرمش عند مفصل الأصابع، الضوء أغبش، هو الفجر، سحب ثقيلة تغطى الأفق، حزمة من أشعة الشمس تنفذ مائلة وتغمرها، ومن أين جاءت الشمس؟ وأين قميصها؟ جسدها العارى بلون القمح، ساقاها بلون مغاير، تميلان للسمرة، ابطاها الناعمان، ومن أزال عنهما الشعر ؟ والعانة أيضا؟ تلمس المياه قدميها وتنساب لتغطى وركيها، فرحة بجسدها ولمعته، شعرها تجمع مبتلا على صدرها، نهداها النافران، تزيح ما لصق بهما من شعر، حلمتاهما الداكنتان، رأسه وسط النهر، يعوم فى اتجاه بعيد عنها، وتقول لو التفت ورآها، ويلتفت، يستدير إليها، هى مبهورة بعومه دون صوت ولا رذاذ، يتحرك جسده كله تحت السطح، يخرج من الماء عند قدميها، يزحف فوق جسدها، يتوقف محدقا إليها، عيناه شديدتا السواد، شعره أكرت، زغب خفيف على شفته، بقعة عطش بيضاء على خده، وأين رأته من قبل، يدها تتحسس رأسه المبتل، يدس وجهه فى صدرها، تحتويه بذراعها، جسده الأملس، قلق فوقها، يبحث عن وضع يريحه، لا صوت، لم تسمع له صوتا، تسعى ركبتاه بين ساقيها، يحاول أن يباعد بينهما، لا تستجيب، تفسح له أخيرا، ما كاد يدخلها حتى انتفضت.

تجفف عرقها وتمضى إلى الحوش، جسدها الواهن وكأنها الحمى، توارب الباب قليلا وتنتظر، ضوء الصباح يغمر الوسعاية ولا احد، تأخرت فى نومها، تلمح ضرتها تذهب وتاتى أمام بيتها كالخفير، وتقول أنه لا بد لديها مشوار تقضيه ولا تريد ترك البيت مفتوحا بلا أحد فيه، تنتظر عودة واحد من أولادها، وأين

ذهبوا؟. تنتظر هى الأخرى خلف الباب الموارب، وتراها تقف على ناصية بيتها تتلفت، ثم تعود، مشيتها المتمهلة، مربعة، ممتلئة، منتفخة البطن، صدر جلبابها مفتوح على سعته، لا تهتم بما يظهر من خلاله، تذهب وتأتى، وماذا بالبيت لتخشى عليه، والكلب مقطوع الأذن رابض على العتبة. يرفع رأسه عندما تقترب من البيت، ويعيدها حين تبتعد وتلمح البنات عائدات هناك فى طرف الوسعاية، تتوقف ضرتها حتى يقتربن، تتبادل معهن كلاما ثم تمضى مبتعدة.

تخلو الوسعاية، تنتظر قليلا ثم تغلق الباب.

صوت ما أيقظها، انتظرت والنعاس يغلب عليها أن تسمعه مرة أخرى، كانت قد جاءت بالعنزة من مربطها فى الخارج وتركت الشباك مفتوحا لنسمة هواء.

صوت احتكاك. انتبهت. كأنه قط أو كلب يحك جلده فى الجدار، ضوء القمر يتدفق داخل الحجرة، نومها أصبح خفيفا، والحر أيضا، والشباك الذى نسيته مفتوحا، وربما كان يقلقها أثناء نومها دون أن تدرى، مسترخية فى رقدتها تنظر خلال الناموسية، وماذا لو تركت الشباك مفتوحا حتى الصباح؟ لا تخشى غير القطط وما تثيره من ضجة داخل البيت. ترمق ضوء القمر على أرض الحجرة، الأشياء وكأنما تغير شكلها فى الضوء الناعم. ولمعة بأسفل تجويف الطشت المائل على الحائط، لابد أن مياها تخلفت عندما أفرغته بعد استحمامها، فردت جسدها وكادت تنقلب على الجنب الآخر عندما لمحت الظل على الأرض يحجب الضوء.

سكنت حركتها، وماتت الشهقة فى حلقها، تحدق مرتجفة إلى الشباك، كان هناك مقرفصا على حافته يتأهب للوثوب إلى الداخل ثم غير رأيه ملتفا حول نفسه منزلقا دون صوت. سعد. ويفعلها؟ أزاح الناموسية جانبا وأدخل وجهه وكتفيه، جاءته الرفسة عنيفة فاندلق على الأرض رافعا ساقيه. يلملم نفسه سريعا، منحنيا يكاد يثب فى اتجاه الشباك، ثم يراها على حافة السرير، وجهها المشتعل غضبا، ذراعاها وكتفاها العارية، ساقاها المدليتان وقد انحسر عنهما القميص إلى أعلى فخذيها، يلهث، يرمى بنفسه عليها دافعا وجهه بين فخذيها، حشرجة بكاء فى غمغمته:

- أنا سعد يا خالة. سعد

الفخذان البضتان تطبقان على وجهه، تشلان حركته ثم تفلتانه، ودفعة قوية تطيح به إلى الأرض، صوت زمجرة، زمجرتها، متعثرا يندفع إلى باب الحجرة، يلتفت قبل أن يصل إليه، يستدير إليها، عيناه كأنما لا يرى غيرها، يرتمى على فخذيها، تدفعه بعيدا، دائخا يعود إليها، إحدى قدميها لامست الأرض فى نزولها من السرير، انحسر القميص إلى وسطها، متلفتة حولها، ترى الأشياء خطفا، وتراه مترنحا مقبلا عليها، وقبل أن تدفعه دس وجهه أسفل بطنها، يشهق مدمدما، تزيحه بيديها، استماتت ذراعاه حول عجيزتها، تدور المعركة فى لهاث صامت، ارتخت ذراعاه فجأة، وانزلق متأوها، زحف إلى الجدار تحت الشباك، تبحث فى أنحاء الحجرة، تذهب وتعود، يرمقها ساكنا، تعثر على يد فأس مكسورة ملقاة خلف الطشت، تستدير إليه، وتراه يتسلق الجدار إلى الشباك ويختفى.

قعدت مستندة بظهرها للدولاب تمسح بيدها أنفها المبلل، ترمق الكراكيب المكومة تحت السرير:

- وينط من الشباك

جسمها المهدود، والعرق، قطراته تجرى على ظهرها، تتحسس شعرها المنكوش وتنزع منه الدبابيس،كدمة علىفخذها قرب الركبة، ومن أين جاءت؟ لا تذكر أنها اصطدمت بشيء، لعابه الذى كان يسيل على فخذيها، وأنفه يخزها أسفل بطنها، وتقول أنها ستستحم، وتنظر إلى الطشت، نقيق الضفادع بالخارج ولا صوت آخر، ضوء القمر مازال يتدفق إلى الداخل، تتحامل على يديها وتقف، تغلق الشباك وترفع شعلة المصباح، تأخذه والطشت إلى الكنيف.

استلقت بعد الحمام، جسدها رغم الماء البارد لا يزال ساخنا، مجرد أن تستريح قليلا، وما يبقيها بعدما حصل. اليوم من الشباك وغدا لا تعرف من أين. ومهما أغلقت الأبواب فلن يغمض لها جفن وهو فى الخارج يدور حول البيت يبحث عن منفذ، وما أدراها أنه الآن غير قابع فى مكان قريب ينتظر، وماذا ينتظر؟ لن تفتح الشباك ولا الباب إلا فى النهار. وهل يمنعه النهار بعد ذلك؟ ساقاه البائستان وهما تلوحان عاريتين عندما هوى على ظهره، رجفتها وقد ظنته سيموت فيها، ساعة أو ساعتين ويأتى الفجر، وما يجعلها تنتظر؟ الليل فى الخارج مضىء، وهى بعد ما حدث لم يعد يهمها شيء، ظلت فى رقدتها ساكنة، جسدها ما يزال ساخنا، وصدرها نافر على غير العادة وخزة خفيفة تحسها فى الحلمتين تروح وتأتى، وماذا فوق الدولاب؟ تحاول أن تتذكر

ما رمت به من أشياء هناك. نهضت فجأة، فردت ملاءة قديمة على الأرض، تشرب الشاى أولا.

شربت الشاى قاعدة على طرف الملاءة، دلف الدولاب مفتوحة على سعتها، وما كانت حاجتها إلى دولاب بست أبواب، ملابسها تشغل رفا واحدا، وكانت ملابسه تشغل رفا آخر، سحبها واحدة بعد واحدة إلى البيت الآخر، وكان يظن أنه يغافلها، لم تسأله يوما عنها، يحفظها هناك فى سحارة مع ما ترمى به امرأته داخلها من كراكيب، فى كل مرة تلقاه تحس برائحة عفن السحارة تفوح منه، باقى الرفوف فارغة، اللحاف فقط وملاءة سرير وأكياس مخدات مطوية على رف، وداير السرير ما يزال فى لفته. لم تستخدمه ولا حتى يوم زواجها، تكفى ملابسها، لن تأخذ غيرها، وربما الداير الجديد، لن تترك جلبابا أو قطعة من هدومها لتلبسها أى واحدة، وحتى القديم منها، ما أن تشم ضرتها خبر رحيلها حتى تهرول قادمة، وسيكون الدولاب أول ما تفتش داخله، عينها دائما كانت على ما تلبسه، وفى غفلة منها كانت أصابعها تتحسس طرف الجلباب أو الطرحة، حتى قميصها الداخلى، أزاحت ذيل الجلباب مرة لترى ما بطرف القميص من تطريز، ولمسته باصبعها، وحين التقت عينها بعينها سحبت يدها، والتفتت إلى زوجها تكلمه، وستخفى ما تأخذه، لن تلبسه عقب رحيلها، ما أن ينسى الجميع الحكاية حتى تظهر به وتقول أنها اشترته من هنا أو هناك. أفرغت ما بالرف من ملابس على الملاءة، منها ثلاثة جلابيب لم تلبسها من قبل وقميصان، احتفظت بهم للأعياد

القادمة، هى ليست نادمة على شيء، يتساوى الأمر، هنا أو بيت أهلها، تمنت يوما أن يكون لها بيتها، والشباشب أيضا، لن تترك فردة واحدة، يدخل عليها فى أى وقت، من الشباك والباب، ويده دائما ممدودة إلى جسمها، ما أن يتعرى منها شيء حتى تخرج عيناه ويتدلى فمه، والصابون؟ وكادت تنساه. سحبت درجا من الدولاب وأخرجت أربع قطع فى ورقها الملون اللامع، رائحته الحلوة تفوح من الدرج، من عمر زواجها، فى كل مرة تنوى استخدام واحدة تؤجلها لمرة قادمة. والسكر؟ والشاى؟. ستترك الرز والبيض، ينكسر فى الطريق، تأخذه مسلوقا. وضعت البيض فى إناء على النار وعادت للحجرة، حتى لو أغلقت باب البيت سيدخلون، لن يتركوا شيئا، كل ما يجدونه سيذهب إلى هناك، حتى الأطباق والأكواب والحلل، ليكن، لو أمكنها فقط أن تأخذ أطباق الصينى، لا يهم، والناموسية؟ ومن يفكها الآن؟ وحتى لو استطاعت أن تحل أربطتها من أطراف الأعمدة فلن تسعها البقجة مع الملابس، ربما تركوها مكانها، سرير ضرتها أعمدته مكسورة، لن يصلح لتعليق الناموسية، ولو جاءا وناما على سريرها؟ آه تعملها، وتتمناه اليوم قبل باكر، وهو أيضا يعملها.

متربعة أمام أشيائها المكومة وسط الملاءة، تنصت للسكون فى الخارج، تحدق لشعلة المصباح المرتفعة وما تنفثه من ذرات سوداء تلتصق بطرف زجاجة المصباح، ربطت أطراف الملاءة على شكل بقجة، جلبابها الأسود الطويل معلق خلف الباب، لبسته، ولفت الطرحة حول رأسها ورقبتها، حملت البقجة على رأسها وسحبت العنزة، أغلقت باب البيت وراءها. لمحت تحت

شباكها أحجارا متراصة فوق بعضها، لابد أنه سعد وضعها ليصل إلى الشباك، وحين يرونها فى الصباح سيقولون ويقولون، رمت الأحجار بعيدا وسارت وسط أحواض الزرع.

* * *



خرجت إلى الطريق، جلبابها ابتل حتى وركيها بندى كان يقطر من أوراق الزرع، شمرته عن ساقيها لتبعده عن التراب ومشت.

العزبة مثل كل العزب، بيوت قليلة تتجمع متخفية بعيدا عن الطريق، تحيط بها أشجار كأنما تسعى لمزيد من التخفى، وحولها تمتد أحواض الزرع لمسافات طويلة، كان عليها أن تمر بخمس عزب أخرى قبل أن تصل إلى البلدة، وعندما حسبتها رأت أنها ستكون فى بيت أهلها مع طلعة النهار وأخوها يتأهب للخروج إلى الدكان.

بشائر الفجر تلوح فى الأفق، خلعت شبشبها وأوسعت من خطوتها، لا أحد يذهب أو يأتى فى هذا الوقت، وحتى فى النهار أو الليل، لا يخرجون إلى الطريق إلا عند ذهابهم إلى البلدة، وعادة ما يكون يوم السوق، أو عندما ينوى البعض أن يقترض

من أصحاب الدكاكين فى البلدة فيتفقون على يوم يذهبون فيه معا، وفى تنقلاتهم من عزبة لأخرى يفضلون استخدام السكك والشطوط بين أحواض الزرع رغم أنها كثيرا ما تكون موحلة، وحين يلح مشوار ما يقتضى خروجهم إلى الطريق يتكاسلون، ويؤجلونه من يوم لآخر، وطوال سنواتها الخمس هناك لم تفهم سببا لذلك، هى نفسها بعد عامين من زواجها، وكان يوم عيد، وأرادت زيارة أخيها، وأجلت الزيارة لليوم التالى، ثم الذى يليه، حتى انقضى العيد ولم تذهب، ويحدث أن تكون قاعدة على عتبة بيتها وتسمع من يقول أن زائرا قادم من الطريق، وتفهم هى وغيرها أنه قادم من البلدة، وترى النسوة والأولاد ومن يتواجد بالعزبة من رجال يقفون على رأس الحوارى يرقبون القادم فى فضول، ويرونه يخترق الوسعاية على حمارته أو بغلته، وأحيانا يتبعه ولدان أو ثلاثة ليعرفوا البيت الذى يقصده، كانت تتعجب فى البداية، ثم أصبحت تقف معهن على رأس الحارة أو ترقب قدومه من مكانها على العتبة.

بدأت ملامح العزبة التالية تظهر لها، كتلة ضخمة متعرجة، غارقة فى سباتها المظلم، وأحواض الزرع تترامى حولها، تلمح أطرافه تتمايل فى ضوء الفجر الرمادى.

تمشى بامتداد شاطئ النهر والعنزة بجوارها، فئران تقفز دون صوت قرب الماء، ومن وقت لآخر يعبر نمس الطريق متهاديا قادما من الزرع ويختفى ببطن الشاطئ.

لمحت حجرا كبيرا تحت شجرة، وكانت فى مقابل العزبة،

وأغراها ذلك بأن تستريح قليلا فقد لا تعثر على حجر آخر خلال ما تبقى من الطريق. قالت وأتناول لقمة، ماذا تقول امرأة أخيها حين تدخل عليهم بدون فطور، أطلقت العنزة ترعى فى حوض برسيم بمواجهتها وقعدت على الحجر، أخرجت لفة الطعام من البقجة، تأكل وعينها على العنزة، تناديها حين تبتعد، رمت بقطع صغيرة من العيش إلى بطن الشاطئ، وراقبت الفئران تقفز مبتعدة، ثم تعود متلصصة تتشممها وتهز ذيولها ثم تسحبها وتختفى، رمت بقطع أخرى وابتسمت، البقال فى العزبة يدين لها بثلاث برايز، ثمن بيض، أبقتها عنده لتشترى بها، كان عندها ما يكفيها، واليوم كانت تنوى أن تشترى بها زيت وبهارات وعسل أسود، زوجها يشربه، ما أن يعثر على البرطمان الذى تخفيه حتى يرفعه إلى فمه ويشرب، حين يرون الباب مغلقا سيظنونها نائمة، وفى الظهيرة يبدأ الخبط على الباب، وماذا سيفعلون؟ ينادون زوجها، وهو ينادى ابنه، ويرفعونه إلى السطح بعدها يكسرون قفل الباب، لا يوجد غير مفتاح واحد معها، لم يهتم زوجها أن يكون معه مفتاح، وما حاجته إليه، ربما كان يجب أن تتركه بالباب، رمت بما تبقى من عيش إلى الفئران، وامرأة أخيها ماذا ستقول؟ أخوها لن يقول شيئا، ينظر إليها ويفهم من نفسه، أخرجت من جيب جلبابها قرطاس لب كان تبقى لديها من ظهيرة أمس، وتحكى له امرأته بعد ذلك الحدوتة كلها عند عودته فى العشاء، سنوات وهو بعيد عن البيت، نسيت سبب زعل أبيها منه، تذكر أنه كان يتعلق بزواجه، تزوج من بلدة مجاورة وفتح دكان حبوب هناك، تزوج بعيدا، وعاش بعيدا، حتى أبوها لم يحضر زواجه، سنوات لا تراه، ثم رأته يوم وفاة أبيها، مكوما

فى ركن الحجرة يبكى وينهنه ورأسه مدفون بين ركبتيه، لم يهدأ بكاؤه طوال أيام المعزى حتى تورمت عيناه، وشهر والثانى وباع دكانه وبيته فى بلدة زوجته وجاء بها وأولاده الثلاثة إلى البيت، كانت وحدها وجاءوا، ملأوا عليها البيت، عملوا له حسا، شهران وهى وحدها، تنام من المغرب، وتأتى امرأة من الجيران لتبيت معها، تأتى مرة ولا تأتى الأخرى، أيام، لو تستطيع لذهبت إلى أختها، هى تستريح لزوجها عن امرأة أخيها، طريقها طويل، تركب لها قطارين، لم تذهب إليها من قبل، سنوات وهما معا، لم يفرقهما غير زواج أختها، يوم ماتت أمها كانت فى الرابعة عشر وأختها فى الحادية عشر، أخوها فى الثامنة. ثلاث سنوات الفرق بين كل منهم، يوم مولده ضج البيت بالزغاريد، وأبوها يوزع الشربات ويعطيها منه عندما تشده من ذراعه، وأمها فى رقدتها بالسرير بعد الولادة، صفراء شديدة الشحوب ولمعة الفرح فى عينيها، هى فى السادسة من عمرها، تحمله على جنبها حين تذهب لشراء حاجة من الدكان، وكلما رآها خارجة يحبو صائحا لتأخذه معها، تعلقه بها الذى زاد بعد موت أمها، كل ما يريده يطلبه منها حتى عندما يريد شيئا من أبيها يأتيها لتكلمه، ورغم سنواته العشر ما أن يراها متربعة حتى يرمى نفسه فى حجرها، وتهزه ضاحكة:

- كبرت على الهز يا إبراهيم

هى واختها تقومان بأعمال البيت، لم ينقص شىء، ولا اشتكى أبوها أو أخوها. وكان أبوها يفكر أن يأتى بواحدة من الأقارب لترعى البيت ثم صرف النظر، تجمعهم وجبة الفطور ووجبة العشاء، وجبة الغذاء يتناولها أبوها وأخوها فى الدكان ومعهما

عم مصطفى الذى يعمل معهما، تعد صينية الطعام وتغطيها بفوطة كبيرة وتذهب بها أختها، وتظل هناك حتى تعود بالصينية والأطباق الفارغة، يقول لها أبوها لدى عودته فى المساء:

- كنا بنمص صوابعنا من حلاوة الأكل.

ما كان أحد يحنو عليها مثله، يعاملها بخلاف أخويها، كلمتها هى التى تمشى. يقول:

- أختكما قالت كذا وكذا. خلاص.

وزوجها موافى. آه كان يظهر أيامها من حين لآخر فى البيت، يصحب أباها ويخرجان، من كان يصدق؟ عرفت فيما بعد أن أباها كان يؤجر له ثلاثة فدادين ليزرعها، ما كان ليجرؤ أن يطلبها من أبيها، ولا حتى يفكر فى ذلك، وحين تدخل بصينية الشاى ينظر إلى الأرض، ويستفسر أبوها منه عن أشياء فيرد دون أن يرفع رأسه. ظلت أختها تحمل الصينية إلى الدكان حتى بان ثدياها كالليمونتين تحت الجلباب فمنعها أبوها من الخروج، وحل عم مصطفى مكانها، تكبر أمام عينيها يوما بعد يوم، خاطت لها أول ستيان تلبسه، يومها قفزت مهللة وأغلقت باب البيت بالترباس حتى لا يدخل عليهما أحد من الجيران، بركت أمامها وخلعت جلبابها كاشفة عن صدرها، قاست القماش على ثدييها وقصته، وحين لبسته وقفت صامتة تكتم زهوها الذى كاد يتفجر من وجهها، ودون أن ترتدى الجلباب راحت وجاءت فى الحجرة ترقب رجرجتهما، تتحسسها وتقول فى دلال:

- عايزة أهرش.

- كلها يومين وتتعودين عليه.

يوم تقدم لها العريس قالت: اختى فردوس أولا.

أبوها سمع وسكت. تصدت هى لها. أخذتها على جنب وكلمتها. تذكر كل كلمة قالتها، أبوك صاحب مرض يقعده أياما بطولها، وأنا الكبرى التى ترعاه حتى يشفى وبعدها أفكر فى الزواج. أخوك كما ترين ترك البيت والدكان وذهب، وترفض أن تسمع كلامها:

- لن اتركك وحدك
- ومن قال أنك ستتركينى. سنتزاور.

ظلت وراءها بالكلام حتى لانت ووافقت. تأتى بعد زواجها مرة كل أسبوع أو أسبوعين، تقضى يوما وتذهب، تقضيانه معا، تحكيان وتحكيان، وهما تطبخان، وهما تكنسان البيت، وهما راقدتان فى سرير الوالد داخل الناموسية كما كانتا تفعلان فى صباهما:

- فاكرة يا فردوس؟
- آه فاكرة

تتذكران وتتذكران، أختها تتذكر أفضل منها، تدهشها بما تتذكره. لا تنسى شيئا. وألعابهما معا وما قالتاه وقتها. وتسألها فجأة:

- وأنت يا فردوس؟
- أنا أيه؟
- نفرح بك
- كل شىء نصيب
- لن يستريح بالى حتى أزورك فى بيتك
- المهم فَرِحنا بك أنت.

- زوجى له صاحب. ومستعد. وبيته هناك جنب بيتنا. وطول النهار نكون مع بعض. نفسى يا فردوس. قولى آه.

- وأبوك؟

- عندنا أربع عمات. ولا واحدة منهن ترفض.

- تعرفين أباك وطبعه.

- يتحمل شوية

- لأ

كل مرة ينتهى كلامهما عند لأ، وتسافر، وليلة سفرها لا يأتيها النوم، هى التى اعتادت أن تغط فى النوم بعد أن يدخل أبوها حجرته، ما أن تراه يغير جلبابه ويصعد إلى السرير حتى تمضى إلى حجرتها، من تعب النهار لا تحس بجسدها، وتأتى اختها لتقلب حياتها، أهو كلامها الذى تقوله لها؟ هى الكبيرة تجد نفسها تتبعها داخل البيت، تنصت لها فى شغف، تنتظر فى صمت ان تحكى، وجهها وهى تحكى ولمعة عينيها وبهجتها، تثنى أصابع يديها وتفردهما، تزيح شعرها جانبا بطرف اصبعها، وترفع حاجبها خفيفا حين تبدى استغرابها، هى مفتونة بها تحدق إليها، وحين تأتى إلى سيرة زوجها وعاداته يخفت صوتها وكأنها تكلمها عن أسرار لا يجب أن يعرفها غيرهما، تسمع لها، لا تفوتها كلمة، ما يلبسه فى الصباح والليل، ما يأكله ويشربه، والشاى يجب أن يكون ثقيلا وسكر قليل، وحين يريدها فى ليلة لا يقول لها، وإنما يلبس الجلباب الأزرق الخفيف، يلبسه قبل النوم بساعتين، ويكون أمامها الوقت الكافى لتعد نفسها وترتب الفراش، تكنس حجرة النوم، وتغير الملاءة وأكياس المخدات، وتشعل عود بخور فهو يحب رائحته، وتستحم وتلبس قميصا تعرف أنه يفضله عن كل

قمصانها، وتتوقف عن الحكى، لا تمضى أكثر من ذلك. وتسافر، البيت ساكت بعد سفرها، هى فى قعدتها بطرف الكنبة تنتظر عودة أبيها فى العشاء، لا رغبة لديها فى عمل شىء، وعندما يأتى تتحرك لتسخن الأكل، يسألها وهو يأكل عما بها؟

- ولا حاجة.

عيناها فى طبقها لا تنظر إليه.

وتضمها حجرتها أخيرا، تستلقى على ظهرها، تنصت لصوت حركة أبيها فى حجرته حتى تتوقف، تطلق العنان لخيالها، تتركه يذهب حرا هنا وهناك، يتنقل فى شوارع لم ترها، ومدن سمعت عنها ولم تزرها، تتلصص على البيوت، وتتوقف مبهورة أمام الحجرات المغلقة، لا تجد الجرأة لاقتحامها، مرة واحدة، ومن كان؟ لا تذكر، ربما أختها، آه هى، مجرد نظرة خاطفة، وقفت غير بعيد عن الفراش، تمسك لهثاتها كأنما تخشى أن تفزعهما، حركتهما الناعمة داخل الناموسية، تخرج، تحس بأن شهقاتها ستفلت رغما عنها، هى أختها، كلامها، وتشتاق لوجودها، تضحك دون صوت، تغمض عينيها والنوم لا يأتى، هو يوم بعد سفرها وتعود كما كانت.

وتقل زيارات أختها بعد مجيء الولد، وعندما تأتى لا تتحرك كما كانت فى البيت، ترقد بجوار الولد لا تفارقه، وكل كلامها عنه، ما يفعله عندما ينام أو يصحو، وأصواته، وأحرف كلمات يطلقها صدفة، وتقل زياراتها أكثر وأكثر، تقتصر على الأعياد، وأحيانا بعض المواسم، وترسل من وقت لآخر من يسأل عن أبيها وعنها، يقف من يسأل امرأة أو رجل بالباب، وتدعوه للشاى،

ويقول أنه كان فى مصلحة بالبلدة ويريد أن يلحق بالقطار.

هى وأبوها وحدهما، موت أمها رغم السنين مازال يخيم على البيت، تلمح أباها أحيانا واقفا وسط الحوش شارد النظرات وكأنما لمح ما يذكره بها، ويصعب عليها، هى التى نسيت أمها او كادت، عوده الذى نحل كثيرا عقب موتها، وانحناءة كتفيه، وأصبح سريع الانفعال والغضب، يتحاشونه قدر ما يستطيعون، حتى اللحظات التى يضاحكهم فيها يتقبلونها بحذر، كانت تصحو فى الليل على سعاله فى حجرته، وتسمع همسا وغمغمة، وجازفت ليلة ودخلت عليه، نهرها فى شدة لدخولها، وعادت لرقادها مغمومة، المرض الذى كان كامنا من زمن ظهر فجأة بعد زعله من أخيها ورحيل أختها أيضا، هو الذى كانت تفرحه لمتهم حول الطبلية فى وجبتى الفطور والعشاء، ويطيل منها، يأكل على مهل ويتكلم، وينتقى قطعا من اللحم يوزعها عليهم، الآن لا أحد غيرها، ليس لديها ما تحكيه، هو أيضا، ينتهى من وجبته سريعا ويظل فى قعدته يتلفت حوله، يفرد ساقه ثم يلمها، تحس أنه يريد أن يقوم ولا يرغب فى تركها تأكل وحدها، تلك اللحظة التى تستمتع بها فى النهار كله، تمضغ اللقمة بطيئا متحاشية النظر إليه، ترقب حركته بطرف عينها، وتسمعه يتنهد المرة بعد الأخرى، وتستمر فى الأكل حتى بعد أن تشبع، تخشى أن يلاحظ، تعرف هى التى عاشرته طويلا أنه سيتحمل القعدة إلى حد معين وبعدها ينفجر مرة واحدة، وكانت تتوقف حين تشعر من صوت أنفاسه التى بدأت تشبه الزفرات أن ضيقه بلغ مداه، منذ أصبحا وحدهما وهو حريص فى كلامه معها، لا ينفعل أو يغضب، ولا

يقول كلمة تجرحها، غير أنه كان يكلمها متحاشيا النظر إليها، وحتى عندما يطول كلامه معها لسبب ما يختطف نظرة إليها ويعود ليحدق بين قدميه متعجلا نهاية الكلام. يقعده المرض بالأسبوع، ويترك الدكان لعم مصطفى الذى كان يأتيه فى الليل، يتكلمان معا قليلا ثم يمضى، ويخفى نوباته عنها، لا تسمعه وهى فى نومها، حتى كانت مرة رأت الخرق التى يتقيأ فيها ويرمى بها تحت السرير، وضعت له الطشت بجوار الفراش ولم تقل كلمة، وتركت باب حجرتها مواربا فى الليل، تصحو على النوبة، تقف حافية أمام باب حجرته المغلق تنصت، لا تجرؤ على الدخول أو السؤال، تسمع تأوهاته وزفراته، ثم تسمعه يتنهد لاهثا، وتنتظر قليلا وتعود لحجرتها، ويوم اكتشفت الدم فى قيئه قبعت فى ركن الحوش تبكى، يأتى الطبيب ويذهب، ودواء بعد دواء، يتوقف الدم يوما أو يومين ثم يعود، وأرادت يوما أن تترك باب حجرته مواربا لدى خروجها وسمعته يقول:

ـ أغلقيه.

وأغلقته، تكاد تقضى الليل كله أمام باب حجرته المغلق، تنصت، تغفو، تصحو على لهاثه وهو يتقيأ، تفكر أن ترسل لأخيها وتخشى غضب أبيها، منذ رحيله لم يذكره بكلمة، وتفكر فى أختها، وتقول معها العيال، ومن يرعاهم؟ ويلومانها بعد ذلك لأنها لم ترسل لهما، ويغضبان، ويعلو صوتهما عليها وهى ساكتة لا ترد بكلمة. فى الأيام الأخيرة تقبّل بقاءها فى الحجرة، لا يشخط فيها، ولا يشير لها أن تخرج، حذرة من الاقتراب من الفراش حيث يرقد، تتربع على حصير خلف السرير حتى لا يراها، تخطو على طرفى قدميها لتختلس النظر إليه، وتراه

ساكنا مغمض العينين، وتعود لقعدتها، يوم موته جاء عم مصطفى مبكرا عن أى يوم كأنما أحس أنها النهاية، جلس على الكنبة فى الصالة، ألقى نظرة داخل الحجرة وعاد إلى قعدته، كوب الشاى لم يشربه، ظل أمامه حتى برد، هى فى الحجرة، اقتربت من الفراش، كانت غسلت وجهه وألبسته جلبابا نظيفا، وجهه شاحب فى صفرة الليمون، عيناه زائغتان، ينظر إلى شراعة الشباك، يطيل النظر هناك، يلتفت فى غضبة مفاجئة:

- أنت هنا؟

- آه.

يشير بيده المرتعشة إلى الشراعة:

- لمَ تُغلقينها؟

- طول عمرها مغلقة.

- ومن أغلقها؟

هى حائرة، عيناه الغاضبتان لا تفارقان وجهها، ثم يهدأ وكأنما نسى الأمر. ترق نظرته، يغمغم:

- وأنت؟

أنفاسه اللاهثة، يبدو كأنما سيكلمها مرة أخرى، ثم تتوه نظراته، يغمض عينيه، تضع الفوطة المبتلة على جبهته، رعشة جفنيه الخفيفة، تتوقف الرعشة، وتقول انها الغيبوبة، تغير الفوطة، تنتظر أن يفيق وتعود الرعشة إلى جفنيه، وما أدراها أنه مات. عم مصطفى. أحست به يسحب يدها بالفوطة عن جبهته، أخرجها من الحجرة وأغلقها.

هى وحدها فى البيت بعد المعزى، الجميع ذهبوا، أختها وزوجها

وأولادها، والأقارب، أخوها يقول قبل رحيله أنه سيذهب ليصفى تجارته ويعود. هى تنتظر عودته، البيت ساكت بعد الصراخ والعويل، يدهشها اتساعه، حوش كبير، صالة، حجرة خزين، حجرة للدواجن والأرانب، حجرة للضيوف، ثلاث حجرات نوم، واحدة لأبيها، وواحدة لأخيها، وواحدة لها وأختها، الكراكيب كثيرة، تشغل ركنا بأكمله فى الحوش، لم تكن تستغنى عن شىء. سيأتى يوم وتحتاجه، حين جاءت امرأة أخيها رمت بها كلها إلى الشارع. أخوها لم يقصر معها أبدا. قال لها نصيبك محفوظ. البيت والدكان والأرض فى أى وقت تطلبينه، ولكنه زوجك قد تكون عينه عليه. كان ذلك قبل زواجها بأسبوع. هى لا تفكر فى نصيب أو غير نصيب، رضيت بالزواج لتغادر البيت وتبعد عن امرأته، وكان يحز فى نفسها أن تتركه لها تغير فيه كما تشاء، تنقل كل شىء من مكانه، حتى الموقد لم تتركه فى حاله، هذا هنا، وهذا هناك، لم يعد بيتها ولا بيت أهلها، وأخوها يرى ولا يقول كلمة، كان أبوها على حق حين قال انها امرأة صعبة، لم تكن رأتها وسألته ان كان رآها؟

قال انه يعرفها ويعرف أباها. لم يقل أكثر من ذلك.

ورأتها فى المعزى، تعجبت من نحولها الشديد، وصدرها الضامر ووجهها الهزيل الشاحب، وماذا بها حتى يتزوجها أخوها؟ عيناها فقط وشعرها، لمعة عينيها السوداوين، وشعرها الكثيف الأسود سايب على ظهرها وكتفيها، ترى كل ما حولها فى نظرة واحدة، لا يفوتها شىء، من أول يوم حددت الأمور، أشارت إلى حجرة أبيها وقالت هذه حجرة أخيك، وغيرت مكان السرير والفرش والناموسية والحصيرة، وكانت تساعدها فى

نقل الحاجة ولم تقل كلمة، وحجرة لابنها، هو فى الخامسة أو السادسة ولا يجوز أن ينام مع البنتين، وحجرة للبنتين وأنت معهما، لا يهم، معها البنتان، ومهما كان هى عمتهما، الحجرة لا تسع سريرا ثالثا، أعدت فرشة بين السريرين، لا يدوم الحال أبدا، تنتظر، الأيام علمتها أن تنتظر، يحدث دائما ما لا يتوقعه أحد، لم تر فى حياتها مثل أولاد أخيها، لا فى شقاوتهم ولا فى قلة أدبهم، يتبادلون شتائم لم تسمع بها، ورفس وشد شعر ولا أحد ينهرهم أو يقول لهم عيب، نالها ما نالها منهم، يقولون يا فردوس، لا يقولون يا عمة، هات كذا يا فردوس، اعملى كذا يا فردوس، وكأنها شغالة فى البيت، حين رأوا أمها تفعل ذلك عملوا مثلها، وأخوها لا يقول كلمة، يرى بعينيه ولا يبدو له الأمر غريبا، ما دامت عمتهم فعليها أن تتحملهم، ربما كان ذلك ما يقوله فى نفسه، حين يشتد بها الضيق تختفى فوق السطح، وتسمع نداء امرأة أخيها ولا ترد، ترقد بين أكوام القش حتى تهدأ، وأحيانا تنعس، وتسألها أين ذهبت؟ ولمَ لمْ ترد عليها؟ وتشكوها لأخيها، السكوت أفضل شىء، تسكت وتسكت، وكل شىء يحل نفسه بنفسه.

وجاء اليوم الذى قال فيه:

- هناك من تقدم لك

كان متربعا على الكنبة، هى وامرأته قاعدتين على الحصير أمامه، لم تستوعب ما قاله، وحين استوعبته أطرقت. قال:

- أنت تعرفينه.

- من؟

- موافى.

- لا أعرفه.
- جاء مائة مرة وقدمت له الشاى
- لم أره. كثيرون يأتون وأقدم لهم الشاى
- سترينه.

ورأته. جاء يوما حسب موعد، واربت الباب ونظرت إليه، هذه المرة أجلسه أخوها بجواره على الكنبة. كان نظيفا على غير عادته، حليق الذقن، وجلباب جديد، وبلغة فى قدميه، يومها لم تدخل عليه بصينية الشاى، تناولها أخوها منها خلال الباب الموارب.

قال أخوها أنه لن يغصبها على شىء. هو متزوج وعنده أولاد، وأحواله تسمح بفتح بيتين، لديه عشرة فدادين إيجار، ثلاثة منا وسبعة من آخرين، غير البهائم التى يربيها لحساب الغير، وطول تعاملنا معه لم نر منه إلا الخير، وسيكون لك بيت لوحدك وباسمك سأقوم ببنائه، اسمى، البيت باسمى وكنت ناسية. طيب. يبدو أنهما اتفقا على كل شىء قبل أن يقولا لها كلمة، وربما سعى أخوها لزواجها منه. هى تخطت الثلاثين وماذا تنتظر. ولا كان الزواج على بالها. وقالت متزوج أو غير متزوج، سيكون لها بيتها.

ويتم زواجها "على الساكت" ولا حتى زغرودة.

قال موافى أنه متزوج ولا يستطيع أن يعمل فرحا، ماذا يقول الناس؟

ووافق اخوها، هو بطبعه لا يتحمس لأية ضجة.

قليل من الحناء فى قدميها ويديها، وليلة رحيلها غطت نفسها

بملاءة من الرأس للقدمين، وساعدها زوجها على امتطاء حمار كان مربوطا أمام البيت، وامتطى هو حمارا آخر، وسارا، هو وراءها غير بعيد عنها حتى خرجا من البلدة إلى طريق العزب فجاورها ومد يده وأمسك فخذها، أزاحتها بعيدا وزمجرت، سكت بعدها.

انقشعت عتمة الفجر، وتألق الضوء فى الأفق، كانت مسترخية على الحجر وظهرها لجذع الشجرة، صوت طيور عجزت عن رؤيتها تتحرك بين أغصان الشجرة المورقة، نمل أسود زحف على جلبابها، كاد يصل إلى فتحة صدرها، نفضته، مياه النهر الداكنة، قذفت بحجر كان بيدها وراقبت الدوائر تتسع وتختفى، وما فكرها بكل ذلك وكانت نسيته، تعود إليهم مرة أخرى، والفرشة بين السريرين، والبنت توقظها حبسة البول فى الليل، تنزل من سريرها وتدوسها، وكومة الهدوم التى تغسلها، حتى ملابس امرأة أخيها الداخلية تتركها فى الغسيل ولا تخجل. حمرة الأفق واللون الرمادى يزحف عليها، ساعة زمن وتفتح البيوت أبوابها، ولو رجعت إلى بيتها؟ تغمض عينيها، لو أنها غفت قليلا؟ التعب الذى حل بها. تنهض فى تثاقل، ترفع البقجة إلى رأسها وتسحب العنزة، لديها الوقت لتعود قبل أن يخرجوا من بيوتهم.

* * *



هذه المرة لا تعرف كيف دخل. الشباك لم تعد تفتحه، والباب أغلقته بالترباس عقب أذان العشاء، أيقظها وجوده فى الحجرة، كما لو أن ظلا سقط على وجهها فصحت، كان قاعدا بمدخل الحجرة يأكل، تراه من رقدتها داخل الناموسية، الصينية أمامه، رغيفان. جبن. عسل أسود، وكيف عرف مكانه؟ ربما لمحها يوما وهى تخفيه، يأكل فى نهم، ساقاه ملطختان بالطين، أزاح عنهما الجلباب حتى ركبتيه، وثنى إحداهما مستندا إليها بذراعه، نفس قعدة أبيه عندما يأكل. تراه ولا يراها. الناموسية تحجب الرؤية من الخارج، مدت جسدها فى استرخاء، صوت طقطقة ركبتها الخفيف، سكنت حركته لحظة محدقا فى اتجاه السرير، عاد يأكل، هى لا تريد العراك معه ثانية، تعبت المرة السابقة، والرعشة التى أمسكت بها ساعتى زمن، لو يمشى من نفسه، يأكل ما يأكل ويمشى. ولا يصدع رأسها بكلامه، بها ما يكفيها.

بجواره قلة ماء، شرب وتجشأ:

- أيه يا خالة. صحيتى؟

لم ترد
ينظف أسنانه بنتفة قش التقطها من جواره:
- لم آكل من طلعة النهار. نسينا ونحن نجرى فى الغيطان. فرح فى عزبة اولاد الشامى وقلنا نراه. ملأت بطنى بما وجدته فى الأحواض من خيار وطماطم. وتقيأتها كلها أثناء الجرى. آه. الكلام معك خطر. تغضبين وتضربين.

نهض، غاب قليلا وعاد بكوب شاى فى يده، لابد أنه وضع البراد فى الموقد قبل أن يأكل، لا يهم، يشرب شايه ويمضى.

- قلت لنفسى يا سعد لو رحت بيتكم لن تجد لقمة واحدة باقية، ينتهى اليوم ومعه كل ما فى البيت من أكل. لن أجد غير العيش الناشف والبصل. وتقول أمى تركت لك كيت وكيت. البنات تقوم من النوم واحدة وراء الثانية، الواحدة تشوف أختها راحت للأكل تعمل نفسها نايمة لغاية ما ترجع وتروح فى النوم تقوم هى كمان. يلحسن كل ما تركته امى. ولا نَفَع معهن كلام ولا ضرب.

تود أن تسأله كيف دخل ولا تسأل.

يشرب الشاى مستندا بظهره لحلق الباب، ينحنى متحسسا الطين على ساقيه، ربما جف ويفركه فى الحجرة ؟ يطمئنها اتساخهما، لن يقترب بهما من السرير.

يقول ضاحكا:

- إنما كان فرح. لم تسألينى عنه، ولا حتى من العريس والعروسة. لن تعرفيهما. أنا نفسى لا أعرفهما. سمعنا انهم جاءوا بفرقة عوالم من بعيد. قلنا نراهم. هيصة وزحمة والغازية اللى قالوا عنها كيت وكيت ظهر انها نبوية البلانة فى البلد. ولا امراة

هناك إلا ونتفت لها شعر بدنها. وزوجها سمكرى كلوبات. هى تهز وسطها وهو يغنى. رأيناها مرة فى البلد أمام بيتها، رافعة رجليها على جانبى طشت وتدعكهما بالقش والصابون. واحد منا قال لها:

- أيه يا نبوية اللى جرى فى الدنيا؟

تضحك وتقول:

- بس يا واد. عندى فرح الليلة.

ويسألها : وحاتغنى إيه؟

- عارفة انت بتسأل على أيه.حاغنيها لك. شعبطنى ولعبطنى.

- آه. هى دى. وبعد ما يشعبطك ويلعبطك؟

- اسأل أمك.

لسانها زفر. وفى الفرح تهز صدرها المحشى قطن. آه شفناه. كل ما يبص من فتحة الصدر تحشره بإصبعها. وأول ما ترفع رجلها وترميها فوق الرجالة تهلل وتصرخ وترمى عليها الطواقى. وعلى أيه؟ رجلاها ولا ينفع معهما دعك ولا صابون. لونهما بلون قعر الحلة. والفستان لم يتغير من يوم ما وعينا عليها. أحمر بنصف كم ومنسل عند الذيل وعلى صدرها. المهم شربنا المقلب. وتعاركنا هناك. وجروا وراءنا.

سكت قليلا، ثم قال:

- ولا حتى سألتينى عن سبب العراك؟

لن تسأل. ولن تغضب مهما قال. تعكر دماغها ولا تستطيع النوم بعدها. هى تذكر نبوية. جاءت مرات إلى بيتهم لامرأة أخيها. عايقة. وشعرها ويداها مصبوغة بالحناء، ورائحة البخور

تفوح منها. وجاءوا بها يوم زواجها. وأغلق عليهما باب الحجرة، ترددت فى خلع ملابسها، لم تخلعها أبدا امام أى واحدة ولا حتى امرأة أخيها، عينا نبوية بكحلهما الثقيل على جسدها العارى، لا تستريح لنظرتها ولا للبانة التى تلوكها فى صوت يسمعه من يمر بالشارع. القشعريرة التى غمرتها، تظل مبتعدة، نافرة، يدها تستر أسفل بطنها، وعينا نبوية لا تفارقانها، تقول وفمها مبلل باللعاب:

- مكسوفة منى؟ اقعدى.

أسلمتها جسدها. تلصق الحلوى اللزجة بجلدها وتنتشها، تغمغم بكلام يحمر له وجهها، تضحك نبوية:

- بكره تسمعين أكثر وأكثر.

يأتيها صوته من الحوش، ترك مكانه فى غفلة منها، تخشى أن يعلو صوته، وقف بباب الحجرة يسأل فى صوت خافت ان كان هناك معسل نسيه أبوه؟

هى لا ترد. يقول:

- عارف. لن تقولى.

يغيب قليلا ويعود. معه الجوزة وجمرات فى طبق، يقعد متربعا ويفرد ورقة المعسل. ومن أين جاء بها؟ زوجها لا يأتى من زمن، وهى تنظف البيت كل يوم، ولو ترك زوجها أية حاجة لرأتها. يقول:

- لا أحد يعرف أبى مثلى. بعد أن يعدل مزاجه يلف ورقة المعسل ويحشرها فى أقرب جحر بالجدار وينساها. عندنا فى البيت كذا جحر، نصفها على الأقل فيها ورق معسل، وأوقات ورقتان فى الجحر الواحد. هو نفسه مرات يحسس على جيب

الصديرى ولا يجد باكو المعسل، يبص على الجحور.؟ صحيح ناشف شوية إنما يمشى - يرفع الورقة بين إصبعيه - وجدتها بالجدار فى ركن الحوش. كنا ندخن هناك. أنت تطبخين ونحن ندخن. ونأكل ورجلى جنب رجلك. ولا ضرب ولا رفس ولا حاجة.

يجذب أنفاسا متلاحقة من غابة الجوزة، رائحة الدخان؟ لو مر أحد الآن فى الخارج وشمها؟ وكلهم يعرفون أن زوجها انتقل إلى البيت الآخر، ان لم يعرفوها وحدهم فضرتها قامت باللازم.

استدارت على جنبها. تستطيع أن تراه أفضل. يحس بحركتها ويخرج الغابة من فمه، ينظر تجاه الناموسية مترقبا:

- وكنت أقول لنفسى أننى لن أجد أحدا فى البيت. آكل وآخذ راحتى. الأولاد شافوك وسط الزرع وعلى رأسك البقحة والعنزة جنبك. مشوا من بعيد وراءك. وكنت تلبسين الجلباب. على فين والدنيا ليل؟ واحتاروا. قالوا النهر؟. ومن تروح وحدها النهر فى هذا الوقت؟ ورأوك خرجت للطريق وهم وراءك. مشوار. وشافوك ماشية طوالى. لما حكوا لى قلت راحت لأهلها، والبيت ساكت. يومان بليلة ولا يُسمع منه صوت.

وأين كانوا؟ لم تلمح أحدا. ولا حتى ظلا. والزرع قصير لا يخفيهم. الآن تأكد ظنها. يختفون فى القنوات الجافة بين أحواض الزرع، لا يمكنهم الوقوف بها وإلا لمحتهم. ينبطحون. ما أن تعطيهم ظهرها وتبتعد حتى يجروا ليقتربوا منها ثم يعودون لاختفائهم. لو تعرف فقط ما يريدونه منها. ويقول رأوك بالجلباب. لم تكن مرة أو مرتين خرجت بالقميص.

غفلت لحظات عن النظر إليه. وكانت تتقلب براحتها فى الفراش وقد نسيت وجوده. فوجئت برأسه داخل الناموسية مسندة لحافة السرير، سكنت حركتها، فخذاها عاريتان حتى منتصفهما، تركتهما، ونهداها كادا يخرجان من فتحة القميص، الزر الأخير فلت من العروة، عيناه تتحركان على جسدها وأنفاسه تتلاحق، تلاقت نظراتهما لحظة، وابتعدت عيناه، ثم عادتا لعينيها، وابتعدتا مرة أخرى، مدت يدها لتجذب طرف القميص على فخذيها، أفزعته على ما يبدو حركتها، تراجع، رأته واقفا فى منتصف الحجرة ساكنا، ثم اختفى.

لا صوت له فى الحوش، ولم تسمع باب البيت يفتح أو يغلق، كما جاء ذهب، لا تدرى كيف. ودت لو سألته. السطح؟ ربما. هو السطح، ومن أين سيأتى إن لم يكن منه، تذكرت أنها من أربع سنوات علقت حبلا بعرق خشب بارز من السقف، تماما فوق المصطبة، وجعلته على شكل أرجوحة، الأولاد طلبوا منها ذلك، سعد وأخواته وآخرون، ومرات كانت تدفعهم بيديها ويهللون، وسعد أيضا، ومرة دفعته بقوة كما طلب، التف طرفا الحبل على بعضهما وجنحت الأرجوحة وارتطم سعد بالجدار. ورم فى جبهته، تدعكه بيدها ورأسه على صدرها، يكتم تأوهاته متظاهرا بأنه لا يوجعه. هى نفسها، ثلاث أو أربع مرات، وربما أكثر، تكون خارجة فى الليل لتأتى بالعنزة، ولا ترى أحدا هنا أو هناك، وتصعد إلى الأرجوحة، تهز نفسها بنفسها، وكبر من كبر من الأولاد وابتعد، وجاء غيرهم، لا تخلو الأرجوحة منهم، لها زمن لا تلتفت إليها، ربما مازالت مكانها، ما أسهل أن يمسك الحبل

ويصعد إلى السطح.

الجوزة مسندة إلى الجدار، الصينية فوقها الطبقان فارغان، وبقايا رغيف، حدقت قليلا إلى الجمرات التى خفت وهجها، وراحت فى النوم.

* * *



ويأتى ثانية، صحت ورأته عند باب الحجرة، نفس جلسته فى المرة السابقة، الصينية أمامه تحتوى بالإضافة للجبن والعسل الأسود على نصف الفرخة التى كانت تحتفظ بها لغذائها باكر. يحس بيقظتها، يضحك :

- ولا على البال. نصف فرخة مرة واحدة.

يقبل على الأكل فى نهم ولا يقول كلمة، مص عظام الفرخة، وشرب شايه. وجاء بالجوزة واسترخى يدخن، هى فى رقدتها داخل الناموسية تغالب النعاس الذى يثقل عليها، الدورة الشهرية تنهك جسدها، تكره أيامها وتعمل لها ألف حساب، تكاد لا تغادر السرير، لم تكن تتعبها من قبل كما تتعبها الآن، هو هناك عند الباب يجذب أنفاسا طويلة ويسعل حتى تجحظ عيناه، لم يعد يشغلها مجيئه وقد عرفت كيف يأتى. رأت الحبل مازال معلقا بعرق الخشب البارز من السقف، رفع طرفه وحشره فى حديد الشباك الخلفى ليبعده عن أيدى الأولاد. وقالت أنها ستصعد إلى السطح وتفك عقدته من عرق الخشب وتستريح، ونسيت.

يقول: لم تسألينى أين كنت فى اليومين الماضيين؟

ويقول: ولا سألتينى أين ذهبت وأبى فجر أمس. رأيتك تنظرين من شق الباب، تواربينه وتنظرين، تصحين فى الفجر وتقعدين خلف الباب. لن أقول لأحد. ولاحتى لأمى. تسألنى عنك. تقول لها زمن لا يراها أحد. ألم ترها؟ وأقول اننى لم أرك.

أزاحت الناموسية خفيفا بما يسمح لها برؤيته، كان مشغولا بوضع الجمرات فى حجر الجوزة ولم يلتفت نحوها. لمعة وجهه فى ضوء اللمبة المجاورة له، وساقاه النظيفتان، ربما كان يستحم فى النهر أو المجرى قبل أن يأتى. تتأمل وجهه مرة أخرى، يتحسس شاربه الخفيف بطرف اصبعه، الجلباب على اللحم، والياقة مفتوحة لآخرها، مزهوا بعضلات صدره التى يرمقها من لحظة لأخرى. كبر فى العامين الأخيرين، كبر مرة واحدة، لم تلحظه حتى فاجأها، تغلق الناموسية وتسترخى.

ويأيتها صوته: لا مزاج عندك للكلام. وكنت أقول لنفسى. القصد..

حين عادت بنظرها إلى هناك لم تجده.

ويغيب يومين ويعود. كانت أغلقت باب الحجرة من الداخل. أيقظتها محاولاته لفتح الباب، وخشيت من الضجة تزداد وتتسرب إلى الخارج. وماذا كان يحدث لو تركته مفتوحا وجاء وأخذ قعدته ومضى؟ لم تعد تعرف ما يصح أن تفعله. احتارت. قالت لنفسها أغلقى باب الحجرة يا فردوس. وأغلقته، والآن؟ صوت خربشته على الباب لا تتوقف. يناديها:

- يا خالة. افتحى يا خالة. لم أضايقك. تقفلين الباب؟ لم أضايقك.

ولا حتى اقتربت منك. إذا كان يضايقك كلامى فلن أفتح فمى بكلمة. ليه يا خالة ؟ أنا سعد

ويسكت، ثم يعود للكلام:

- وأين العسل؟ لا أجده. حتى العسل تخفينه عنى؟

كادت تخبره بمكانه الجديد. هى لم تقصد أن تغير مكانه لتخفيه عنه، ولا كان على بالها. كانت تملأ البرطمان ثم وضعته فى المكان القريب من يدها.

أزاحت الناموسية وقعدت على حافة السرير، تمد ساقيها وتتأمل استدارتهما ولمعة جلدها. تبتسم فى وهن، صوته خلف الباب يأكل ويغمغم بكلام لا تسمعه، لو نظر من ثقب المفتاح سيرى ساقيها الممدودتين.

تقف أمام المرآة. الضوء خافت، ترفع الشعلة وتعود للمرآة. وجهها الشاحب، وهالتان داكنتان تحت عينيها. ربما كان الضوء. لها زمن لم تقف أمام المرآة. وكأنها مريضة، أمسكت باللمبة إلى جوار وجهها. الشحوب قليل، ليس كما رأته فى الضوء الخافت، والهالتان أيضا. هى لا تشكو من شىء، جسمها الواهن قليلا، ونومها الكثير، آثار الدورة. يومها الأخير، وغدا تستحم، ربما لومشت، أيام طويلة لم تخرج. وما جرى لها؟ وسخ على صدر القميص، تلبسه من يومين، ونسيت أن تستبدله. خلعته والقطع الداخلية، اختطفت نظرة إلى الباب المغلق، يشرب شايه، والشاى ساخن، صوت رشفاته المرتفع كأنما يخفف من سخونته، يمسك الكوب من حافته بطرف اصبعيه مثل أبيه، لا ينتظر حتى يبرد

قليلا، فتحت باب الدولاب فى حذر، أخرجت غيارا، تنظر للمرآة، خجلة من عريها، تغطى بالغيار أسفل بطنها، وتزيحه قليلا قليلا، تفرد عودها، تنتبه للصمت خلف الباب،ذهب ليأتى بالجوزة والجمرات. نبوية ؟ وأين هى الآن ؟ ولو جاءت بها ورأتها نسوان العزبة والكلام الذى سيتهامسن به. تضحك دون صوت وتفرد شعرها على كتفيها، يوم أغلق عليهما الباب، وحلواها اللزجة، بعدها شعرت بجسدها خفيفا ناعما، وكانت تقول لنفسها أنه جميل جميل، وكأنها لم تره من قبل.

لبست الغيار ولمت شعرها. يأتيها الصوت لاهثا:

- عريانة يا خالة. عريانة.

أجفلت، تراجعت بعيدا عن مسار ثقب المفتاح. صوته غريب عليها. أجش، مبحوح.

- آه يا خالة.

خربشة أظافره بأعلى الباب، كأنما بسط جسده فوقه.

- عمرى ما شفت واحدة عريانة.

تستند بذراعها لحافة السرير، ورجفتها لا تهدأ.

- ياه يا خالة. انت حلوة. وظهرك حلو. وكل حاجة.

صوت احتكاك خافت بالباب، وماذا يفعل هناك؟ ويظل ساكتا حتى تلبس. تحس برجفتها تكاد تهدأ. تستطيع الآن الصعود إلى السرير. الغضب الذى بدأ يموج داخلها، وربما عاد بعينه إلى ثقب المفتاح. غدا تسده. ورآها. هى التى لم يرها أحد غير نبوية، حتى ولا زوجها، دائما كانت تعطيه جنبها منحنية على نفسها حين تغير ملابسها، أو تتوارى بعيدا عن عينيه.

هامدة فى الفراش. وكيف تنظر إليه بعد ذلك ؟ وهو؟ تجرأ

عليها بما يكفى، لن تزيد جرأته اكثر مما هى.

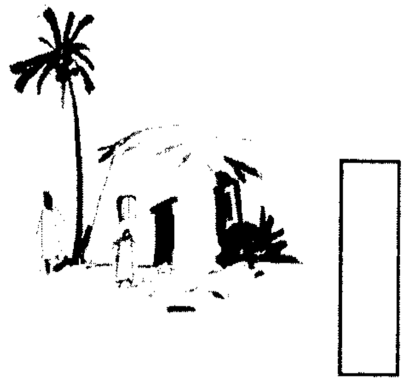
رائحة دخان المعسل تتسرب داخل الحجرة، عاد إلى قعدته. ربما ينفث الدخان من شق الباب.

- يا خالة. افتحى.

وكم مضى من الوقت؟ هى صاحية، تحدق لسقف الناموسية ولا تفكر فى شىء. وهو ما يزال هناك. لم يعد يدخن. يقعد دون حركة.

وتسمع خطواته تبتعد.

* * *



هى تحلم. تعرف انها تحلم. شاطئ النهر. البقعة التى لم ترها أبدا. ساقاها المتربتان، ترفع ذيل القميص بيدها. النهر ساكن. مياهه الداكنة، والتماعات ضوء القمر على سطحها، ولا صوت. المكان غير المكان الذى حلمت به من قبل، لم تر أشجارا ولا حجارة كبيرة، واصلت مشيها بامتداد الشاطئ. تسمع ضجتهم قبل أن تراهم، تتوارى خلف شجرة تنظر إليهم، هم وسط النهر يتقاربون ويبتعدون، صياحهم وقفزاتهم، ورذاذ الماء يتناثر عاليا، يغطسون ويطول اختفاؤهم، وكأنما انشق الماء، ترى أجسادهم طائرة، ويغوصون.

- طول الوقت فى النهر. ولا يتعبون.

تخطو فى حذر إلى بطن الشاطئ. تقف على حجر أبيض مسطح، الحجر زلق، تتشبث أصابع قدميها بما فيه من نتوءات، تنحنى لتشطف ساقيها، ملمس المياه الباردة.

- وأين طرحتها؟

تعرف أنها هناك معلقة بفرع شجرة، طرف قميصها ابتل، تحاول أن تلمه فى يدها، وتنزلق.

هى قاعدة ممدودة الساقين، المياه تصل إلى منتصف بطنها، ينتفخ القميص بين ساقيها ويعلو إلى سطح الماء، تضغطه بكفها، تتناثر الفقاقيع حولها.

هم هناك أحسوا بها، رؤوسهم طافية، ملتفتة نحوها، لا تقترب ولا تبتعد، تبحث بينها عن صاحب العينين السوداوين، ولا تراه، ثم تراه. كان هناك منفردا غير بعيد عنهم.

- ونسيت أن تسأله عن اسمه. كانت تناديه لو عرفته.

يعوم فى اتجاهها دون صوت.

الطين الناعم اللزج، ينساب على قدميها، والطرحة تخفق هناك على فرع الشجرة. تطيل النظر إليها:

- لو تمزقت كما فى المرة السابقة، وليس لديها أخرى، نسيت أن تشترى، البائع أيضا من زمن لا يأتى إلى الغربة.

وواحدة. جارة غير بعيدة. استلفت منها طرحة. قالت مشوار صغير. وتعيدها، ولم تعدها.

هى لم تطلبها، انتظرت. وقالت لها الجارة، كانتا أمام الدكان، قالت انها مكسوفة منها، الطرحة ضاعت، بحثت عنها فى كل مكان ولم تجدها.

- طيب. ربما لبستها يوما وتراها.

ولبستها ورأتها، والجارة وكأنها ليست طرحتها، تكلمها وتسوى طرفها حول وجهها، الطرف به تطريز بنفس اللون الأسود، لم تحزن على الطرحة قدر حزنها على التطريز الذى عملته بيدها، مدت أصابعها تتحسسه، والجارة قالت:

- اسكتى. لقيتها. كنت نسيتها فى الغيط. وانكسفت أرجعها لك. شوفى. كذا نقرة فيها.

ما يزال يعوم بعيدا. ظننته اقترب، ينظر إليها، وينظر، يسرع فى العوم، يقترب. جسده تحت الماء فوق ساقيها متكئا على يديه وعيناه فى عينيها، المياه تكاد تحركها فى قعدتها.

تقول له ان قميصها ابتل.

يقول: نعصره. ونعلقه. يجف سريعا.

هما فى الماء، القميص بينهما يمسك كل منهما بطرف، يلويانه، يمضى به إلى الشجرة، يفرده ويعلقه بفرع منها. ظهره العارى، لونه يغاير لون ذراعيه وساقيه المحروقة من الشمس، هما ممددان على طين الشاطئ، هى على ظهرها وهو على جنبه مائلا عليها، شعره يقطر ماء، عيناه لم تر مثلهما، ولا فى سوادهما. يده على صدرها.

تقول: ينظرون إلينا.

يقول : آه. ينظرون.

رؤوسهم الطافية هناك. تتأرجح خفيفا مع التيار، يريح وجهه على صدرها، وذراعه على بطنها.

يقول: لا تلتفتى إليهم.

غير انها تنظر إليهم، وتراهم ابتعدوا كثيرا. التماعات ضوء القمر على المياه حيث كانوا يقفون، تغمض عينيها، تريحهما من الضوء.

* * *



ويأتى. يغيب أياما ويأتى، يبدو كأنما نسى رؤيتها عارية ، لا يشير بكلمة من قريب أو بعيد، هى أيضًا نسيت وكأن ذلك لم يحدث أبدًا، وما كان لها أن تقلق من لقائه، أكثر من مرة تقابلا، عند مصطبة بيتها وأبوه يدخن ويشرب الشاي، وعند البقال، والمجرى، يقفان ويتكلمان كما اعتادا من قبل، ويواصل كل منهما طريقه، تماما كما حدث عند ما بدأ زياراته الليلية، تلتقى به فى النهار، ويكلم كل منهما الآخر وكأنه لم يكن على عتبة باب حجرتها بعد نصف الليل، ورغم ذلك تحس أن شيئا ما حدث بينهما هذه المرة، لا تعرف ما هو، تحسه فى الرجفة الخفيفة التى تسرى فى بدنها عندما تلمحه مقبلا، وأحيانا تجد نفسها تستعيد صورة جسدها العارى كما رأته فى المرآة تلك الليلة، تتأمل انسياب فخذيها ودملجتهما، وصدرها الممتلىء. وتضيق قليلا بما لحق به من تهدل خفيف.

يأخذ قعدته خلف باب الحجرة المغلق، يدق خفيفا ويهمس :

- خالة. يا خالة أنا سعد.

ويمضى يفتش فى البيت عما يأ كله.

تصحو. تجفف عرقا حول رقبتها ، اختفت نسمة الهواء، منذ أغلقت الشباك وباب الحجرة، والحر يزداد يوما بعد يوم، حتى فى ساعات الليل. لا تحتمل القميص حين يلتصق بجسدها، ومرات تصحو لتخلعه وتعاود النوم.

تفلت منه الصيحة حين يعثر على طعام لا يتوقعه :

- مهلبية يا خالة. مهلبية. وثلاث أطباق. يا قوة اللـه

تكتم ضحكتها داخل الناموسية، وتقول لنفسها مرة والثانية ويطير عقله

يغمغم وهو يلتهم الأطباق :

- اللـه يا خالة. اللـه.لا أحب الأكل إلا من يدك. لو تفتحين الباب أبوسك بين عينيك. وخدك كمان. آه يا خالة. نفسى أحط رأسى على رجلك زى زمان وأروح فى النوم. وصوابعك بتلعب فى شعرى. فاكرة يا خالة :

وحتى لو افتكرت ؟ مرة. مرتان. ربما أكثر. كل ما تفتكره اليوم الذى رقد فيه ورأسه على فخذها ، وكان فى عز النوم ويده على ساقها، ثم دخلت يده تحت الجلباب وظلت على ساقها، لم تلتفت إليها بعد ذلك حتى أحست بها على فخذها، دفعته بعيدا، صحا فزعا. من يعلم ربما كان نائما. وصاح كعادته :

- ايه يا خالة. ايه.

قالت له يومها انه كان يشخر وهو نائم.

يتناول كل ما يعثر عليه فى النملية، لا يترك شيئا لغذائها باكر. هى تطبخ الفرخة أو أى أكل ليومين حتى تستريح فى اليوم التالى. ويأتى هو ويجهز عليه.

ويوم البطة. سمعت صيحته هناك أمام النملية، تكاد الضحكة تفلت منها.

- نصف بطة بحاله. والصدر الذى أحبه. أنت تعرفين أننى أحب صدر البطة. والقنصة كمان والكبدة. ليلة آخر تمام. والملوخية. من يصدق ؟ وكله فى ليلة واحدة .

هى فى رقدتها على بطنها أزاحت الناموسية، ومدت رأسها خارجها، ترقب الباب المغلق وكأنها بذلك تراه على نحو أفضل. تهز قدميها المرفوعتين، وتتخيله هناك مشمرا جلبابه عن ساقيه وذراعيه، يشعل الموقد ليسخن الأكل، يأتى بالطبق بعد الطبق إلى مكانه أمام باب الحجرة المغلق. يقول فجأة ويبدو أنه تربع أمام الأكل :

- آه. نسيت المخلل. يحلو المخلل الآن . ويا سلام لو خيار مخلل .

تكاد تراه وهو يقفز مبتعدا، تنتظر صيحته، تعرف أنه سيجده، قدْر الخيار المخلل جنب النملية يراها الاعمى.

يتنهد فى قوة وهو يعود لقعدته :

- تسلم يدك يا خالة. حتى الخيار المخلل لا تنسيه.

ويقول وربما كان يتأمل ما أمامه من أصناف :

- كله تمام. لا ينقص شىء. وليمة يا سعد. ولا الأعياد. آه. الليمونة. حتى ولو نصفها. ربما أجد واحدة. والقلة. جرعة الماء. دائما أنساها. لا أتذكرها إلا واللقمة محشورة فى زورى. آخر حاجة، ولن أقوم بعدها.

نصف الليمونة هناك فى النملية تحت الفنجان . لن يخطر الفنجان بباله وهو يبحث. يسقط دبوسا شعر من رأسها، تميل لتلتقطهما من الأرض، تظل فى ميلها مرهفة أذنها للباب.

ـ تحت الفنجان يا خالة ! لا تغيرين عادتك أبدا.

ومتى رآها تضع أنصاف الليمون تحت الفنجان ؟

صوت زفراته وهو يأكل. نفس طبع أبيه. والمصمصة بعد كل ملعقتين، ولسانه يلحس شفتيه بعد قضمة من الزفر، يسترخي بعدها. لا يتحرك. لا ينطق. وكأن روحه راحت، ذراعه ممدودة على ركبته المثنية، ولمعة الدسم على يده، يديرها من لحظة للحظة ويتأملها. وليلتها لم يتكلم إلا وهو يدخن:

ـ يا سلام يا خالة لو تفتحين الباب . آه. البط والباب مفتوح. ولو قربت منك يبقى لك الكلام وتعملى فيّ ما يحلو لك. لن أتحرك من مكاني. أنت داخل الناموسية وأنا هنا، لا أراك وأنت داخلها. كل ما أراه خيالك وأنت تتحركين فى رقدتك. ولو أخرجت وجهك من الناموسية وتكلمنا. آه. زى زمان. نتكلم ونضحك. كنت تهزرين معي وتضربينني على كتفي وظهرى، وأضحك، وأنت تضحكين، تقولين كبرت يا سعد، ولو لمستك تغضبين، ولا أعرف ما يغضبك. طول عمرى يدى على رجلك وذراعك وكتفك ولا تغضبين

لن ترد عليه. يقول ما يقول ويذهب،يكفي أنه أكل غذاءها باكر، لن تغضب ويفور دمها والأمر لا يستحق.

اعتدلت فى رقدتها بالسرير وفتحت الناموسية بحثا عن نسمة

هواء قد تاتى من الشباك.

- طيب. أقوم

ولا يقوم. ما يزال هناك. التفتت نصف التفاتة مرهفة أذنها، لا تسمع صوت حركته التى اعتادت سماعها عندما ينصرف.

صوت رشفات الشاى. يشرب كوبا آخر، وتعود رائحة دخان المعسل تقتحم الحجرة بعد أن كانت توقفت، هو على ما يبدو غير رأيه وسيطيل قعدته. ومن ينتظر. يخرج وقت ما يخرج. استدارت على جنبها، اصطفق فخذاها فى صوت تحب سماعه. وجهها للحائط، اغمضت عينيها . يأتيها صوته الخافت :

- امبارح رحنا السينما فى البلد. تحية كاريوكا قاعدة على كرسى عالى. والروب مفتوح. رجلها مكشوفة لغاية الركبة. ورجل على كرسى صغير قدامها يلبسها فردة جزمة. مسك قدمها يدخلها فى الجزمة. وهى تقول " آى. بالراحة. صابعى بيوجعني ". انحنى على قدمها يبوسها. وهى تضحك . افتكرتك ساعتها.

ويسكت قليلا. ثم يقول :

- من سنتين كنت تقعدين على كرسى يشبه كرسى الرجل. وقدماك فى طشت الغسيل تدعكينهما بالحجر. وقميصك ملموم فوق الركبتين. وأكون جنبك . وتقولى يا سعد املأ الكوز. وأروح للزير وأملأ الكوز. وأوقات أصبه على رجليك. فاكرة يا خالة ؟ ولا تطردين ولا تدفعين بيدك كلما قربت منك.

هي تذكر. كان هناك دائما. وما أدراها أن عينيه كانتا مفتوحتين على آخرهما. وأوقات كانت تنسى وجوده، وتغير جلبابها الذى اتسخ أو ابتل، تحس بالقميص الداخلي مشدودا للجلباب وهي

تخلعه كاشفا عن فخذيها، وتسوى القميص، وتلتفت وتراه واقفا بالحجرة، ولا يخطر على بالها شيء. ويأتى الآن ويتكلم.

- وكنا راجعين ليلتها. والمشوار طويل. وبنحكى عن الفيلم. وأنا قلت أن رجلى تحية كاريوكا أجمل رجلين فى الدنيا.

وواحد منهم قال أنه شاف احلى منهما.

ونسأله من ؟

يبص لنا ويضحك ولا يقول.

هى دقيقة ورأيت الاولاد هللوا ونطوا وقالوا عرفناها. وانا واقف حيران بينهم . وهمسوا لبعض ، وبصوا لى. وأنا فهمت. كانوا يقصدونك. لم يقولوها. انما طول السكة يتغامزون. ثم قالوها.

قالوا ان رجلك ملفوفة لفة لم يروا مثلها، وقدمك صغير وطري لو مشى على حجر يوجعك.

ومن أين يأتون بهذا الكلام ؟ فى هذه السن ويقولونه. وحتى لو كانوا أكبر. لم تسمعه أبدا من قبل، ولا خطر لها أن هناك من يقولونه.

راقدة على ظهرها تحدق نحو باب الحجرة المغلق. هو هناك يجرى بظفره على الباب. يسكت ويعود للكلام. الحر الذى لا تطيقه. سرعان ما يسخن جسدها وينشف ريقها، والدوخة تروح وتأتى، هو الحر، حتى لو فتحت الناموسية على آخرها، ترفع ساقها قليلا وتفردها، ملفوفة ! وحتى قدمها. تمشى الواحدة وعيونهم عليها، وهى ولا على بالها، يرون ما لا تراه، ومن تنظر إلى قدمها وتقول انه طرى او غير طرى.

- وسالونى عنك. وقالوا أنهم لم يعودوا يرونك تخرجين إلى الزرع

وقلت لهم : ولا غير الزرع

وقالوا : ولا حتى الدكان ؟

وقلت : ولا الدكان

وقالوا : وحتى عندما تخرج لتسحب العنزة. هى دقيقة تفك قيدها وتعود.

وسألونى : لم تحبسين نفسك ؟

وقلت انك لا تحبسين نفسك

وسألونى ان كنت أراك ؟

وقلت اننى قليلا ما أراك. لم أقل لهم كلمة عن مجيئي لبيتك. أعرف ما سيقولونه. وقالوا الأكثر منه. وكنا اتفقنا أن نحكى لبعض كل حاجة. وهم حكوا لى. ولو عرفوا أننى أخفى عنهم ! وحصل.

يسكت.

الحر يكاد يكتم أنفاسها داخل الناموسية. تجفف عرقها بفوطة تحتفظ بها تحت المخدة . وتحس أنها لم تعد تحتمل القميص، تخلعه، تهوّى به على جسدها العارى المبتل بالعرق. الليلة غير كل الليالي فى حرها .

وسألونى : عندما تراها ألا تلمسها؟

وقلت : ولمَ ألمسك ؟

ويقولون : واحدة مثلها. وتقف أمامها ولا تلمسها ! لابد انك لمستها وتخفي عنا

ويقولون : احك. أين ؟ صدرها ؟ وركها ؟

وأقول إننى لم ألمسك. ولا فكرت فى أن ألمسك.

وقلت لنفسي يا سعد لا داعى للشجار. هم ستة وانت وحدك.

وقلت لهم : لم يخطر لى أبدا ما يقولونه.

ويقولون : انهم لا يصدقونني. ترقد أمامك. وتراها راقدة. مرة على جنبها. ومرة على ظهرها. ولا تفكر فى أن تنام معها؟

ويقولون : وربما كانت من النسوان التى تتظاهر بأنها راحت فى النوم وعليك أنت الباقى.

ويسالونني ان كنتِ تظاهرتِ مرة بالنوم ؟

ويقولون انهم رأوك. ويعرفون أنك لست من هذا النوع

ويقولون : آه. ليست من هذا النوع.هى من نوع تحية كاريوكا. إذا أرادت تطلب. أحسن نوع.

ويقولون. ويقولون. ثم يقولون فى النهاية انني لابد نمت معك وأخفى عنهم.

وشتمتهم. واشتبكنا. وراحوا يهدئونني :

- نحن ندردش. ونحكى. وإذا كنت لا تريد أن تقول لا تقول

وقلت انك مثل أمى

ويقولون : امك ؟ اخص. ومن ينظر لأمك أو يحكى عنها غير واحد كأبيك

وعدنا للشجار. وراحوا يهدئونني

كانوا غاضبين لأنني قلت انك مثل أمى

ويصيحون كيف أقول عنك هذا الكلام ؟ واحدة مثلك لا يوجد منها اثنان. وأن اللـه صنعك من طينة غير التى يصنع منها أمثال أمى.

- طينة صغيرة يحتفظ بها على جنب. كن فتكون
- آه. للمزاج. حين يريد أن ينعم على الناس. مرة كل كام سنة.
- وتقول أمك ؟
وأنا ساكت لا أرد .
ويعودون للكلام عن المرات التى رأوك فيها بالقميص وسط الزرع والطرحة ملمومة على كتفك وشعرك سايب على ظهرك، وانت ترفعين ذيل القميص حتى لا يبتل من الندى على الزرع. وينتظرون هبة ريح حتى يلتصق القميص ببدنك ويرون تقاطيعه، ويحكون عما رأوه.
وأنا ساكت لا أرد
ويصيح واحد منهم : وحتى وهي بالجلباب ؟ من تمشى مثلها ؟ ومن فى نظافتها ؟ كلهن هنا. ولا واحدة إلا وتمرغت فى السباخ.
ويسألونني : لم ترك أبي بيتك ؟
وأسرع فى مشيتي لابتعد عنهم، ويلحقون بي.
ويقولون : تهرب ؟ أنت تعرف وتخفي عنا
ونشتبك بالايدى، ونهدأ.
ويقولون انهم لم يروا ما يعيبك. وأن العيب فى أبى.
ويقولون امرأة مثلك لا يتركها رجلها ليلة واحدة.
ويتوقفون عن المشى، واتوقف. وأراهم يتبادلون النظرات.
ويقول واحد منهم : ربما خاب أبوك معها ؟
ويقول آخر : لابد أن هذا ما حصل
وآخر : وهذا ما جعله يهرب من البيت

وآخر: بعد أن عصرته أمك كل هذه السنوات. ماذا بقى منه؟

- مصاصة قصب

- وناشفة كمان

- ولم تزوجها وهو على هذه الحال ؟

- أرزاق . عم موافى لا يهمه واحدة حلوة أو غير حلوة

- وربما ما تزال بكرا ؟

- مصيبة لو كانت

ويراهنوني انك مازلت بكرا

وأتراجع مبتعدا، ويلاحقونني، وأتراجع، لم يعد خلفي غير الزرع. وأقف

هي متربعة أمام السرير، فردت قميصها وقعدت عليه، الأرض الطينية، رطبة، خففت قليلا من سخونة جسدها، لابد أنها تحلم، أحلامها كثيرة هذه الأيام، وما يحدث لها الآن؟ كل هذا الكلام، وتسمعه بأذنها، ولا تستطيع أن ترد، أو تفعل أى شىء، ماذا جرى فى الدنيا ؟ يقول لها بكر أو غير بكر ؟

تلتقط حصوة تخزها فى فخذها وترمى بها فى غضب.

ويقولون : انت تعرف وتخفي عنا. لم لا تخبرنا. نحن أصحابك ونحكي لك كل ما يحدث لنا. وأنت لا تحكي.

وأنا ساكت لا أرد. ويدفعونني بأيديهم، وأزيح أيديهم بعيدا.

ويقولون : اسألها. لم لا تسألها ؟

ويقول واحد : ربما يخجل من سؤالها.

ويقول آخر : ولم الخجل ؟ إذا كان بينهما كلام كما قال لنا

لم أقل لهم أبدا ان بيننا كلام. ولا لفظ لساني يوما كلمة عنك.

ويقول واحد : وأبوه ؟ لم لا يسأل أباه ؟

ويضجون بالضحك، ويقفزون مهللين، وأنا واقف ساكت، أقول أن الليلة لابد ستنتهي بشجار، أنا أعرفهم، حين يفلت عيارهم. ودائما أنا وأنت. يبدأون بفلان وفلان من جيرانهم، وأهاليهم،خالته. عمته، وبنت عمه وما يفعلانه فوق السطح، يحكون ويحكون، ثم يتغامزون ويلتفتون نحوى.

سكتوا، وظننت أنهم اكتفوا، ثم أجد واحدا يقول :

- صحيح لم لا يسأل أباه ؟

ويقول آخر : ومن يكلم أباه فى هذه الأمور ؟

وأمشى ويمشون بجوارى. ويصيح واحد فجأة :

- وأمه ؟ لم لا يسأل أمه ؟

ويقول آخر : صحيح. أمه. لا أحد غيرها. ولن يخجل من سؤالها.

وآخر : وهي تعرف. لابد أنها تعرف. ما من شيء يحصل فى بيتك يا فردوس إلا ويصلها خبره. طول الوقت قاعدة على مصطبة بيتها. وعينها وأذنها هناك.

- تسمع وترى وتشم كمان

- وعندما يعود زوجها تنفضه. تسحبه فى الكلام وتعرف منه كل شيء

- هى أمه. يسألها.

- اسألها يا سعد. لا تسألها أمام اخواتك البنات. آه. تكون أنت وهي وحدكما. وتقعد جنبها وتسأل ان كان صحيحا ما عرفته؟

- وهي تسألك. ما هو الذى عرفته ؟

- كده تمام. تقوم تسأل سؤالك على طول. ان كانت فردوس ما تزال بكرا ؟

- وستضحك. أنا اعرفها. ستموت من الضحك.وتضربك على ظهرك وتقول "وعرفت إزاى يا وسخ. ده سر لا يعرفه غير ثلاثة».

- ولن تقول أن العيب من زوجها

وأجرى، ويجرون ورائى. ونتعارك.

ويسكت قليلا ثم يقول :

- وأعود للبيت. جلبابي مشقوق من الياقة حتى منتصفه. وشفتاى وارمتان. لا يضايقني غير الجلباب. وكذا مرة أقول لهم نبعد عن الهدوم.

ويسكت مرة أخرى، ويقول :

- وأمى تدور حولى. تريد أن تعرف. وأنا لا أنطق بكلمة.

ويسكت. ويطول سكاته. يقول همسا :

- الورم ما يزال فى شفتي. تنزفان.

تنظر فى وهن إلى الباب. تكاد لا تعى شيئا مما حولها، وشعلة المصباح ؟ الضوء أصفر باهت، مع أنها نظفته فى الصباح. ربما عيناها. هو بالجانب الآخر لا تسمع له صوتا ولا تعرف ان كان غادر مكانه.

تظل فى قعدتها وقتا. تنهض فى تثاقل. تلمح قلة الماء فى ركن الحجرة. تنحني وتصب الماء على رأسها، تصعد ببللها إلى السرير.



صحت فى العصر. لم يحدث من قبل أن نامت كل هذا الوقت. وكانت تسمع خبطات على باب البيت،تنصت لها لحظة وتعاود النوم.

قفزت من السرير، نشطة على غير العادة، أول ما خطر لها أن تغير من وضع الأشياء فى البيت، منذ تزوجت وهي فى مكانها حتى زهقت من رؤيتها. تأكل لقمة أولا، جوعها الشديد وكأنها لم تأكل من يومين وتشرب الشاي، وتلبس جلبابا قديما وتعصب رأسها بخرقة كما كانت تفعل فى بيت أبيها، يوم التنظيف كل أسبوعين أو ثلاثة. وواحدة من الجيران تساعدها، يضيق أبوها من هذا اليوم مع أنه طول النهار فى الدكان، ورغم حرصها الشديد وهي ترتب حجرته كان لا يجد بعض أشيائه فى مكانها، ويزمجر مناديا عليها. وآه لو غيرت مكان حاجة كبيرة.السرير. الكنبة.الترابيزة. لا يستريح حتى يعيدها إلى ما كانت، ويساعدها فى حملها. يقول :

- « الواحد تعود عليها فى مكانها. ولا يستريح إلا وهى فيه »

بحثت عن جلباب قديم وخرقة فى صندوق تحت السرير. لن يقول أحد ان بيتها غير نظيف، أو انها أهملت نفسها يوما. يكفى ما راح من أيام وهي لا تتحرك.

أمام باب الحجرة آثار قعدته. عظام البطة. وحبات أرز ،ورماد، والصينية والأطباق. الغلطة غلطتها، استمعت إليه وتركت كلامه يدخل دماغها، كان يمكنها ان تضع المخدة على رأسها وتروح فى النوم، ويكلم هو نفسه كما يريد، أولاد يشاكسون بعضا ويهزرون، حتى لو كان الكلام عنها. كلام يطيّر العقل، يقولون عنها كل هذا الكلام ؟ ولا يرون فى العزبة غيرها.

حملت المرتبة على رأسها وصعدت إلى السطح فردتها فى الشمس، والمخدات. يمكنها أن تغير مكان السرير، تبعده عن الشباك، يصبح فى مواجهتها ولا تحسه فوق رأسها، منذ قفز منه وهى لا تستريح لقربها إليه، والنملية أيضا، تنقلها إلى ركن الحوش البعيد بدلا من ان تتصدره، ويتسع الحوش، وتطلق فيه الكتاكيت، الدولاب يظل فى مكانه، ستحتاج إلى نجار يفكه إذا أرادت نقله، والأمر لا يستحق، تنظفه فقط، وتزيل ما رمت به من أشياء فوقه، كل هذه السنوات ولم تشعر يوما بأنها فى حاجة لأى منها.

انتهت من أعمالها قبل المغرب، استحمت وقعدت لتتناول

غذاءها فى ركن الحوش، القعدة التى لم تغير مكانها.

وقفت بالباب تنظر هنا وهناك. الوسعاية بها بعض الاطفال يجرون خلف الاوز. وقالت اذهب إلى الدكان.

بيت ضرتها مغلق، والكلب ذو الاذن المقطوعة رابض على المصطبة. وأين راحوا؟

ذهبت وعادت وأغلقت بابها. سرعان ما أظلمت وكانت تطعم الكتاكيت وتلاعبها، دخلت حجرتها، لو جاء الليلة فلن يجد ما يأكله، لم تطبخ، عنده الجبن والعسل الأسود، وحتى برطمان العسل لم يبق به ما يكفى تأملت وجهها فى المرآة. الهالتان تحت عينيها زادت قتامتهما، وأين خداها الممتلئتان ؟ أرهقت نفسها فى الشغل، ستنام مبكرا الليلة، لن تصحو لو جاء ونبش الباب، يأكل لقمته إن أعجبته ويمضى، ستخرج. منذ صحت فى العصر والخروج يلح عليها، لو مشت قليلا وسط الزرع يعود اللون إلى وجهها وتختفى الهالتان، الهواء هناك. نسمة حلوة وطرية ترد الروح، وقالت تنتظر حتى ينتهوا من صلاة العشاء ويعودوا إلى بيوتهم ويغلقوا أبوابها.

خرجت، الأصوات المألوفة، نقيق الضفادع وحفيف أعواد الزرع، كانت بالقميص، والطرحة رمتها على كتفها، تحركت العنزة فى رقدتها حين أحست بقدومها، لو تركتها حتى تعود من مشيتها ؟ تنحني تفك قيدها، تأنس بها ، لم تمش من قبل وحدها.

أحواض القمح الممتدة إلى بعيد، أعواده انحنت بثقل السنابل الممتلئة، تميل على بعضها تكاد تلامس الأرض، الأحواض

جافة، والشطوط، والقنوات أيضا، لا تستريح للجفاف أبدا. كلها شقوق، حتى الحشائش التى تدوسها خشنة تتقصف، وقفت لحظة تنظر حولها ثم استدارت عائدة.

* * *



أيام طويلة لا تراه، ولا تسمع صوته. تنام وتقول انه سيأتى فى الليل ويوقظها ولا يأتى، وتقول انها استراحت منه ومن كلامه، لا تستطيع بعد سماعه ان تنام أو تصحو أو تقعد على بعضها.

تطبخ الفرخة، تتناول نصفها فى العشاء، وتحتفظ بالنصف الآخر لغذائها باكر، وتقول وهي تضعه فى النملية هذا إذا لم يأت ويلتهمه، وفى الصباح تجده كما تركته. أربع مرات تطبخ الفرخة، لم يعد لديها غير فرختين، والكتاكيت لم تكبر بعد.

وتمر ببيت ضرتها فى ذهابها للبقال وفى عودتها، وترى البنات على المصطبة، وامرأة او امرأتين من الجيران، ولا تراه، ولا زوجها، ضرتها ربما دخلت البيت أو ذهبت فى مشوار قصير، تبدو المرأتان على المصطبة وكأنهما فى انتظارها. لا تسمع أحدا يدعوها، وتمضى لبيتها.

وتقول انها أيام ضم القمح. درسوه وذروه فى الغيط، ورأت ربطات التبن حين عادوا بها ورصوها خلف بيت ضرتها. وانتظرت.

وتقول انها أيام الحرث. تنظر من شق الباب مع طلعة الصبح، وترى زوجها وضرتها والبنات يضعون ما يحملونه على ظهر الحمار، ويمضون، ولا تراه، ربما زاغ كعادته، مختفيا فى مكان ما، وبعد ان يأخذ راحته فى النوم يظهر لهم، ولا يلومه أحد، ومن يلومه ؟ وأين يختفى ؟ مصيبة يكون على سطح بيتها؟ وتلتفت تنظر خلفها فى الحوش، ثم تعود تحدق من خلال شق الباب. سطحها لا يصلح للرقاد، ولا ربطة قش واحدة فوقه، ويسألها فى ليلة، وكان فى قعدته خلف باب حجرتها، لم لا يكون عندها قش على السطح مثل كل خلق الله ؟ تكاد تنهض من رقدتها داخل الناموسية لترد عليه، ثم تمسك نفسها. أمه تأخذ كل القش الذى يتخلف من الرز، وهو رأى ذلك بعينه وينسى. قال ليلتها أن البيت لا يستغني عن القش، وانها لم تجرب النوم فوقه، ولا مرتبة فى الدنيا بمثل طراوته، وتتمرغين على راحتك.

ويقول : لو كان على سطحك ربطتان أو ثلاثة كنت أبيت فوقها عندما أزوغ منهم، ولن يخطر لهم أبدا أننى على سطحك. عرفوا أغلب الأماكن التى اختفى فيها ويوقظونني من عز النوم. وحكى ليلتها الحكاية التى ارعبتها طول الليل.

صاحبه الذى ينام مع أخته غير الشقيقة. من أمه. تركتها عند اهل زوجها بعد طلاقها، وتزوجت من أبيه وجاءت للعزبة. أخته

هناك فى بلد غير البلد. تأتى لتزور أمها. تكبره بأربع سنوات. لم يرها غير مرات قليلة، تأخذه ويصعدان للسطح، ترتمى فوق القش، هي فى الخامسة عشر، تأخذه فى حضنها وتبوسه، ويتقلبان معا وسط القش، وتقول له أن أحلى نوم على القش، وكبرت وتزوجت، وتأتى لزيارة أمها مرة كل ثلاثة شهور، وهو أيضا كبر. ينتظران حتى ينام كل من فى البيت ويصعدان إلى السطح. يشلحها وتأخذه فى حضنها. وتقول له أنها تحلم بالقش وهي في بيتها. لا تحب النوم على المراتب أبدا. ويظلان على السطح حتى طلعة الفجر. يلتقط القش من شعر رأسها وما التصق منه بفخذيها. وتنزل هي أولا، وحين لا يسمع صوتا ينزل وراءها.

أصحابه حين حكى لهم سالوه عما يفعله معها بالضبط ؟

وقال لهم.

يسألونه وهو يجيب

فى النهاية قالوا انهم لا يصدقونه. فلا أحد ينام مع واحدة بهذه الطريقة

- وهي متزوجة وعارفة

- آه.. وإذا كانت تريدك ستقول لك ما تفعل

وسألوه لم حكى لهم هذه الحكاية وهو يعرف أنها كذب ؟

ويقسم لهم أنه حصل.

- ويقول حصل! أنت تعرف أنها كذب. لم حكيتها

ويقسم لهم مرة أخرى أنه حصل

شتموه، وشتمهم، وتعاركوا، وعاد لبيته وجلبابه مشقوق وعينه حمراء منتفخة.

ويسكت :

ما تكاد تلتقط أنفاسها اللاهثة حتى تسمعه يقول :

- آه. تذكرت. قبل العراك طلبوا منه حتى يصدقوه ان يروا بأعينهم. وكانوا عرفوا أنها فى زيارتهم هذه الأيام.

وهو سألهم : كيف ؟

وقالوا : بسيطة. تخفينا على السطح وسط القش ونرى

كان ذلك سبب العراك.

هى فى ذهولها كادت تسأله.

- وأنت ؟

وأمسكت لسانها. تحدق نحو الباب المغلق غير مصدقة، وتقول لنفسها دنيا غير الدنيا التى عرفتها.

وهو يتكلم تصدق ما يقول. بعدها حين تكون وحدها وتستعيد كلامه تجد نفسها لا تصدق كلمة مما قاله. كان يفاجئها من حين لآخر بحكايات يقشعر لها بدنها. وأين اختفى ؟.

تنتهى أيام الحرث ولا تلمح له ظلا. ويأتى زوجها كل يومين أو ثلاثة قبل قيلولته إلى مصطبة بيتها يشرب الشاي ويدخن الجوزة ويمضى. وطول قعدته يغالب النعاس ولا يقول أكثر من كلمتين، ويخطر لها أحيانا ان تسأله عن سعد ولا تسأله. هى التى شكت له سلوكه من قبل معها. وأين يذهب ؟ يوم والثاني وتراه ينط هنا أو هناك. وحتى لو لم يظهر ما يهمها ؟

وكانت تنفض ملاءة سريرها فى ليلة استعدادا للنوم حين سمعت أصوات عدو وضحكات، ميزت منها ضحكته، وابتعدت الأصوات. قالت انه هو. لابد عاد لأصحابه بعد الخصام. وأين

يذهبون فى هذا الوقت ؟ وربما لم يكن هو. الضحكات تتشابه فى الليل.

انتهت من تنظيف الملاءة، وكانت تخلع جلبابها وتوقفت. لو ألقت نظرة عليهم ؟ وساعتها تعرف ان كانت تصدقه أو لا تصدقه. هم لم يذهبوا إلى البلدة. ولا مكان لهم هنا غير المقهى أمام التلفزيون، والنهر لا يقصدونه إلا آخر الليل. ربما استلقوا فى القنوات ينتظرون خروجها ؟ الوقت مبكر على خروجها. يعرفون موعدها.أكثر من مرة رأوها. لو لفت نفسها بالملاءة ؟ لن يعرفها أحد. كثيرا ما رأت نسوة يمشين فى هذا الوقت بالوسعاية وعلى شط المجرى.

التفت بالملاءة والشبشب فى قدميها وخرجت،اخترقت الوسعاية بيت ضرتها مغلق، ونور يتسرب من تحت عقب الباب، لم يناموا بعد، وربما كانوا يتناولون عشاءهم، دائما تغلق بابها حين يأكلون، لا تستريح لنظرات الناس حتى لو كانوا من جيرانها، رأت ذلك بنفسها فى المرات التى شاركتهم الطعام، أيام الصيام والمواسم.

ضوء الكلوب أمام دكان البقالة، أولاد كبار فى عمر سعد يقفون جانبا، يتهامسون. تبطىء من خطوتها، بنتان تقفان على مصطبة الدكان تشتريان وتثرثران مع صاحبه، فى سن الخامسة عشر. صوتهما المرتفع، ونظراتهما بين الضحكة والضحكة نحو الأولاد، ترى وجوههم فى انعكسات الضوء، هى تعرفهم، والتقت

بهم فى أكثر من مكان، لا تذكر ان واحدا منهم أطال النظر إليها،الملاءة تخفي وجهها، فتحة صغيرة أمام العينين، وقالت أنها لم تر واحدة فى العزبة تلبس الملاءة بطريقتها. كشفت وجهها والتفتت إلى الأولاد، رمقوها خطفا وعادوا يتهامسون وعيونهم باتجاه الدكان. قالت لنفسها ولا حتى نظروا إليها. وماذا كانت تريد ؟ يحدقون فى وجهها ؟ آه. على الأقل ليعرفوا من القادمة. لا يبدو انهم من أصحاب سعد. لا يتنطع مثلهم قرب البنات.

خرجت من حوارى العزبة، المقهى فى مكان متسع، أنواره تشع من الشبابيك والأبواب المفتوحة على سعتها، أربع نسوة يمشين فى الجانب الآخر. وفيم اضطرابها ؟ مجرد نظرة أثناء مشيها. أخفت وجهها بالملاءة، وحتى لو كشفته وعرفوها أو عرفها آخرون ؟ كانت فى زيارة لمعارف لها بالجانب الآخر من العزبة. ومن يسألها ؟ زوجها لم يقل لها يوما أين راحت. حتى عندما كان فى بيتها. تعود من المشوار وتجده قاعدا فى الحوش بانتظارها، يلقاها وكأنها طول الوقت معه فى البيت.

عبرت الضوء أمام شباك وباب، لم تلتفت ولا نظرت داخل المقهى، سارت مبتعدة، وقفت فى العتمة حتى هدأت أنفاسها. عادت. التصقت بالجدار جنب شباك، مدت رأسها قليلا ونظرت، رأته بين آخرين أمام التليفزيون، كادت نظراتها تنتقل إلى الشاشة حين جاءت عينا واحد منهم فى عينيها، سحبت رأسها وأسرعت مبتعدة. يدها المضطربة أفلتت الملاءة وكانت تمسك بطرفيها مضمومين عند رقبتها، احتوتها الحوارى المعتمة. أصوات تأتى

من داخل البيوت المغلقة، لم يناموا بعد، لابد أن الوقت مبكر، وأذان العشاء ؟ ربما أذن لها ولم تسمعه، انتبهت للملاءة تجرجر وراءها، سقطت عنها ولم تحس بها، تجمعها على ذراعيها. ساقاها متعبتان. ربما مشت طويلا ولا تدرى. وأين مشت ؟ خمس أو ست حوارى ؟ سارت أضعافها من قبل ولم تتعب. تخفي على نفسها ؟ وكأنها لم تفزع ولا ارتعشت ركبتاها، عينا الولد فى عينيها. تعرف أنه لم ير منها شيئا. رغم ذلك....

دخلت بيتها. ارتمت على الفرشة بالحوش، رأسها على ذراعها تحدق فى الظلمة. وأين هي اللمبة ؟ لا تذكر أين تركتها بعد أن نظفت زجاجتها. وفيم كان خروجها وبحثها عنه ؟ ما أن تأتيها فكرة حتى تسرع، إن لم يظهر اليوم يظهر بعده، آه من الكلام الذى تقوله لنفسها. تستريح قليلا وبعدها تقوم لتبحث عن اللمبة، وأول ما تفعله تغتسل، والعشاء،ثم النوم، والصباح رباح تفكر على راحتها.

غير أنها لم تنم. حاولت ولم يطاوعها النوم.

خرجت. العنزة ما تزال مكانها تحت الشباك، وكانت تنوى أن تتركها للصباح. قعدت على حجر بجوارها، وشدت ذيل القميص ليغطي ساقيها.

النسمة خفيفة،والسماء صافية، سحب قليلة بيضاء،والقمر هلال. احتضنت بذراعها عنق العنزة، الأحواض بامتداد بصرها مزروعة ذرة، النبتة الصغيرة بأوراقها العريضة الداكنة، لا تكاد ترى سيقانها من صغرها، رعشتها الدائمة حتى والهواء

ساكن.

وكم مضى عليها فى قعدتها ؟ لا تدرى. جففت عينيها بطرف طرحتها وقالت انه من طول ما حدقت النظر جرى دمعها.

قامت، ومشت بعنزتها إلى البيت.

* * *



ويأتى أخيرا

كانت راقدة توشك أن تغفو. سمعت حركته خلف الباب وقعدت، فتحت الناموسية على آخرها وزحفت إلى حافة السرير ودلت ساقيها.

ظفره كالعادة يجري على الباب، ابتسمت، لا ينسى شيئا أبدا. هى لم تغلق الباب من الداخل بالترباس، ما كانت تتوقع مجيئه بعد غيبته الطويلة. لو دفعه لانفتح على سعته .

- يا خالة

البحة فى صوته. انتظرت أصوات حركته التى اعتادت سماعها عندما يأتى، ذهابه للنملية وبحثه عن الأكل، وتهليله عندما يجد ما يحبه، لم تطبخ اليوم، ولها أيام لم تذبح فراخا أو بطا، عنده الجبن والعسل والمهلبية التى يفرح بها.

- يا خالة لم أكن أنوى الحضور

وسكت. وكأنما يمد ساقيه ويريح ظهره لحلق الباب.

- قلت لنفسي إنما يا سعد برضه تقول لها
لا يتحرك فى الحوش، وما جرى له ؟ حتى الشاى والجوزة!
- يا خالة. عرفوك
إصبعه تنبش عند عتبة الحجرة. عم يتكلم ؟
توقفت حركة ساقيها وكانت تهزهما، رفعتهما وطوتهما تحتها.
- كنت تلبسين الملاءة . تخفين نفسك . عند المقهى . عرفوك.
الرجفة التى غمرتها، تتلفت حولها، يدها على صدرها تهدئ من خفقانه. عرفوها أو لم يعرفوها ما الخبر ؟ وكانها عملت عملة. وكانت تنوى ألا تستمع لكلامه أبدا
- آه.عرفوك من الشبشب.« قالوا لا يلبس هذا الشبشب غيرها »
حتى الشبشب ؟
استرخت بظهرها لشباك السرير، واغلقت الناموسية
- عندما حكوا لى. قلت لهم انها واحدة غيرك. لا معارف لك هناك تذهبين إليهم.
وقال واحد : صحيح. لا معارف لها فى هذه الناحية
وقال آخر: معارفها حول بيتها. لم نرها تأتى إلى هنا من قبل.
وقلت : آه لم تأت
- ومن قال انها جاءت لمعارف لها ؟
كنا خرجنا من المقهى بعد انتهاء إرسال التليفزيون، وانصرف الزبائن. لم يبق غيرنا واقفين، والمقهى يطفىء أنواره ويغلق

أبوابه. وأردت أن أمشى، أوقفونى، أمسك واحد منهم بكتفى
قلت لنفسى : يا سعد يظهر انهم يسعون للشجار. ذكروا اسمك كبداية. دائما أنا وانت. ولا أدرى ما يخفون هذه المرة
كانوا يتغامزون، ويلكز الواحد منهم الآخر بكوعه، انا أعرفهم، وأفهم معنى حركاتهم
قلت : أحمى ظهرى
تراجعت خطوتين وأصبح ظهرى لجدار المقهى، وهم أحاطوا بى
وقال واحد : هي لم تأت لتزور أحدا. وأنت عارف
قلت : عارف أيه ؟
وقال آخر : جاءت تبحث عنك
وقلت : ولم تبحث عني ؟
- اسأل نفسك
- حين تبحث واحدة عن واحد فى عز الليل
ويضحكون ويهللون
ويقول واحد : كنا نشك فى أنك تنام معها.
- آه مجرد شك
- الآن تأكد لنا انك تنام معها
- وأنت وحدك الذى ستخبرنا
- ولا أمك ولا غيرها. هل صحيح أن أباك تركها بكرا ؟
وأدفعهم ويدفعونني، ويفصل واحد منهم بيننا.
- لا تريد ان تقول. أنت حر
- نقول لك كل ما نفعله. أسرارنا التى لا يعرفها حتى الجن. وأنت ؟

- لا يهمنا أن كان أبوك تركها بكرا
- ولا يهمنا ان كنت تنام معها أو لا تنام
- لا نريد منك الآن غير معلومة صغيرة
- آه صغيرة

وجوههم متطلعة نحوى، لا تضمر شرا. أنسى حذرى. أسأل :

- معلومة أيه ؟

ويقول واحد : ليست معلومة بالضبط. انما..

ويقول آخر : آه. تسمعنا بعض أصواتها وكلامها

واسأل : أى كلام ؟

- كلامها وأنت نائم معها
- واحدة مثلها لابد تطلق أصواتا وتقول كلاما لم نسمع به أبدا

واشتبكنا.

غسلت وجهي فى المجرى، حاجبي وارم، وأنفي ينزف. وفى البيت كان ينتظرني موال آ خر

يسكت.

هي منحنية، تكاد رأسها تلمس ركبتيها فى رقدتها على جنبها

- أمى صاحية. كانت تنتظرني. بلغها كلام. تنظر لي من فوق لتحت.

تقول : كل يوم جلباب مقطوع. ومرة شفة وارمة. ومرة حاجب وارم

لم أرد عليها.

غيرت جلبابي، وبحثت عن طعام وأنا عارف أنني لن أجد. وجدت. ويظهر أن سهرها منع البنات عن الأكل. وقعدت بطبق الباذنجان المقلى والرغيفين. وهي كانت قاعدة بمدخل البيت والباب أغلقته، وأبى والبنات راحوا فى النوم. وقالت :

- وكل ده بسببها ؟

بلعت اللقمة وأنا ساكت.

- اللى شافوك قالوا :

عيناها على وجهي، أحس بهما.

- شافوك بعد نص الليل تتعلق بالحبل وتطلع السطح

ومن رآني ؟

قبل أن ألمس الحبل أنظر إلى كل ناحية. ومن يصحو فى هذا الوقت ؟ وإذا كان رآني لم لا يخطر له أنني حرامي ؟ لابد أنها كعادتها تريد أن توقعني فى الكلام. قالت :

- كانوا يحكون لي وأنا مبلولة من الكسوف. وعينى فى الأرض ما رفعتها.

وتسألنى : سامعني ؟

ولا أرد عليها.

- وأبوك لو علم ؟

وبرضه ساكت لا أرد. وهي سكتت. تنبش بعود حطب عند قدمها. لمحت هزة رأسها قبل أن تسأل :

- وليه السطح ؟ لم لا تدخل من باب البيت !

وتسأل : وإذا كانت هي.. لم لا تفتح لك الباب ؟

تركت اللقمة وقلت : بتقولى ايه ؟ كل واحد يقول لك كلمة تصدقيه. ولو كان فيه حاجة. أطلع السطح ليه ؟

قلت لها ما يكفي. طول الوقت تنظر لي، ولا يبدو أنها صدقت كل ما أقوله. وقلت لها :

- طول عمرى أدخل بيتها. وحدى أو مع أبى. ونأكل عندها. أيه حصل ؟ لا تصدقين غير ما يعجبك

- وأصدق عيني.أكثر من مرة أشوف عينك تروح وتيجي عليها .

- يا ولية حرام عليك. لو سمع أبى كلامك الفارغ سيغضب منك. وأنت تعرفينه حين يغضب.

- خوفتني أنت وأبوك.

سكتت. ثم سألت :

- طيب. والجلباب المقطوع، وعينك الورامة،أيه الحكاية ؟ اقطع ذراعى ان ما كان بسببها

لم أكمل عشائي وقمت .

عيناها على باب الحجرة المغلق. الصمت هناك بعد أن أغادر

قال كلمته ومشى، وخلف وراءه ما خلف

تصغى. لا صوت فى الخارج. العنزة وأدخلتها. لو أنها الآن قاعدة على الحجر ترمى ببصرها إلى أحواض الذرة الصغيرة

تسترخى وتمدد جسدها، لا ترى غير نبتة الذرة وأوراقها داكنة الخضرة ترتعش، والقمر هلال، وسحب خفيفة كالدخان تنساب فوقه. وكأنها على شفا حلم. تغمض عينيها، تمشى على الشط بين حوضين، قميصها الأبيض، طرحتها السوداء، تنحني تلمس الأوراق الخضراء بأناملها، البلل، قطرات الندى تتجمع

وتسيل على العنق وسط الورقة. تمشى، تفرد الطرحة وراءها ممسكة بطرفيها، تجففها مما لحق بها من بلل. تطل رؤوسهم من داخل القنوات، ويقفون، يمشون بمحاذاتها، هم على بعد، لا ترى ملامحهم، ولا تريد أن تراها. حذرة فى خطوتها، والحشائش زلقة تحت قدميها، تمشى ويمشون، والطرحة تخفق فوقها، وتستدير عائدة، هم هناك، وقفوا يرقبونها تبتعد.

* * *



وكان صيام أول رجب.

يخبرها زوجها قبله بيومين بأن فطورها سيكون عندهم. كان فى قعدته على مصطبة بيتها، ناولها كوب الشاى الفارغ. وطلب منها أن تأتى مبكرا لتساعدهن..

قالها من غير نفس. هو عارف أن ضرتها وابنته الكبيرة لا تتحمسان لمشاركتها، مع انها تطبخ أفضل منهما، وأكثر من مرة سألتها البنت عن طريق عمل صنف من الطعام. عادة ما تطبخان فى هذه المواسم وزة وفرخة والفتة. والحلو أرز بلبن عليه قطرات من العسل والأسود. لو أضافوا إليها طبقين كشك يكون أفضل. ومن منهما تعرف طريقته.

ظلت حتى العصر مترددة فى الذهاب، وليتها ما راحت

وصلت قبل المغرب بنصف ساعة. كانوا فى الحوش. طبليتان. واحدة حولها البنات، والأخرى قعد إليها زوجها وضرتها وبجانبها حلل الأكل والمغرفة وصوانى وأطباق فارغة، قعدت معهما. لم

تر سعد. زوجها يحتفظ بفراغ بينه وبين ضرتها، لا بد أنه لسعد. أزاحت الطرحة عن رأسها وتركتها تتهدل على كتفيها، تحس بنظرة ضرتها على شعرها ووجها وعنقها المكشوف. سعلة سعد في الداخل، ربما يغتسل، عيناها على الطبلية لم ترفعهما، تشعر بقدومه، وكان قادما، رافعا ذيل الجلباب عن ساقيه، ما أن رآها حتى أنزله، وقطرات ماء عالقة بوجهه، أيام طويلة لم تره، احتوته بعينيها، طال عوده وامتلأ، حركته، خطوته، كأنما نضج واكتمل، ترقبه يأتي على مهل، انحنى يقعد في مكانه عند الطبلية، أحست ببخار الشوربة يلفح وجهها،ومتى وضعتها ضرتها؟ التفتت نحوها بابتسامة صغيرة مضطربة،فوجئت بعيني ضرتها مسددتين إليها، نظرتها الشرسة،ربما بدا شيء على وجهها حين نظرت إلى سعد. نسيت نفسها وراحت تحدق إليه.هي التي ظنت أنها قادرة على مواجهتها وجدت نفسها تتخاذل سريعا، تعود بنظرة مترددة إلى ضرتها وكأنما تتحسس شيئا خفيا، العينان في انتظارها، مياه تغلي، وفقاقيع يتناثر منها رذاذ حارق.تنطوي لحظة ثم تعود فيما يشبه الغيبوبة كأنما يجتذبها الغليان،تختلس النظر بطرف عينها، وتلمحهما - العينين - مازالتا مسددتين إليها.

مر وقت وهدأت، وحتى لو نظرت إلى سعد وأطالت النظر وبدا على وجهها ما بدا، ماذا تظن بها ؟

يمدون ملاعقهم إلى سلطانية الشوربة، يدها منقبضة في حجرها، تخشى لو أمسكت بالملعقة والرعشة ما تزال في يدها،زوجها ينظر إليها متسائلا،وتقول ان الشوربة ساخنة،ستنتظر قليلا حتى

تبرد.لم تقصد ما ظهر بصوتها من دلال هي لا تجيده،وتنفر منه ولكنها مسحة خفيفة تسللت دون أن تدرى، التقطتها أذن ضرتها ، وزفرت فيما يشبه الزمجرة، وأسندت كوعها للطبلية وخدها إلى يدها وكأنها تنتظر أن ينتهوا من الشوربة.ورُفعت السلطانية،هي لم تذقها،ولا رغبت فى ذلك.

تأكل فى بطء، وتمضغ طويلا، منابها من الوزة فى طبق أمامها لم تمسه،سعد فى مواجهتها يقبل على الأكل فى نهم،لا ترى غير ملعقته يدسها فى صينية الفتة ويرفعها. تود لو نظرت إليه مرة أخرى وترى ما تغير منه خلال غيبته.

ينتهون من الأكل ويخرجون إلى المصطبة لشرب الشاي وتدخين الجوزة. الكلب ذو الأذن المقطوعة يغادر المصطبة فى تكاسل لدى خروجهم إليها، يهبط إلى الشارع،ينفض نفسه مرة ومرة، ويرفع رأسه كأنما سينبح ولا ينبح، يستدير ويرقد جنب المصطبة.

سعد يقعد بجوار أبيه، البنت الكبيرة تضحك فجأة وهي تقدم صينية الشاي لسعد :

- العريس أولا

عيناها تتصفحان الوجوه غير فاهمة، حين استوعبت الأمر أحنت رأسها، وضعت كوب الشاى على الأرض فى تمهل، تنظرللبخار يتصاعد، طول الوقت تشعر أن شيئا سيفاجئها. زوجها يبتسم متحسسا شاربه،يقول:

- آه. صحيح. هاتوا الشبكة تشوفها فردوس.

وينسى بعد لحظة ما قاله، وهي لا ترغب فى رؤية الشبكة،

ولا ضرتها قامت لتأتى بها، وينهض سعد بعد أن دخن حجري جوزة ويمضى.

يقول زوجها : بنت خاله. فى العزبة جنبنا

وتقول البنت الكبيرة ضاحكة : قرأوا الفاتحة من عشر سنين

ويقول زوجها :آه والله من عشر سنين. كنا راجعين يومها من الغيط، أبوها على حمار وأنا على حمار، جنب بعض. والدنيا حر. مد يده بخيارة أخذتها.رميت بعيني لمحت سعد وخديجة على بعد أربع شجرات طالعين جميزة. سعد فوق وهي وراءه ماسكة بذيل جلبابه.

قلت له : يا سالم نقرأ فاتحتهما

قال : البنت بنتك. وهو ابني

وقرأناها . لم يذكّرني بالفاتحة غيرها. وأشار لضرتها

ويسكت قليلا ، يهز رأسه متعجبا :

- آه والله. ولا كان على البال

وتقول البنت الكبيرة : سيقيم معهم هناك

ويقول زوجها : آه فى نصيب أمه من بيت أبيها. تكفيهما الحجرة. ومعهما خاله وأمها وأخواتها. لا أحد غريب.

وكانت على وشك القيام حين التفت إليها قائلا :

- كنت تكلمين أخاك

يحدق في وجهها : أنوى أنا أيضا أن أكلمه. مجرد أن أذهب إلى البلدة وأمر عليه. انما برضه كلمة منك. لو أجر له فدانا. سعد شاطر. ويعطيه عجلين أو ثلاثة يربيها ..

تمشى على مهلها عائدة.أخوها الذى لم تره من سنين ! وكم مرة لمحت بيت ضرتها مغلقا وتعجبت، كانوا يذهبون إلى بيت

أخيها. ويخفون عنها. ربما لم يخفوا. الأيام الأخيرة كانت مبتعدة، شهر أو أكثر، لا تجد فى نفسها ميلا لتكلم أحدا، أو يكلمها أحد. لا تدرى ما جرى لها. حتى البنات لم تلتق بهن، ولا بضرتها، ولو التقت بها ما كانت ستخبرها. لا تتبادلان أكثر من كلمتين. ولم تأت فرصة لزوجها ويكلمها. وربما ظن أنها عرفت من ضرتها أو البنات.وسعد ؟

تشعل اللمبة وتدخل الحجرة، تخلع جلبابها وتستلقى على السرير. الوقت مبكر على النوم. وكل ما رأت وسمعت . ليلة وتمضى مثل كل الليالي. لم يحدث أبدا أن نظرت إليها كما نظرت الليلة.

وتقول أنه سيأتي. وما يجعله يأتى. لا تعرف. لكنه سيأتي.

هي صاحية داخل الناموسية ووجهها للحائط. سمعت خطوته فى الحوش،وظفره يحك باب الحجرة، ظلت فى رقدتها لم تغيرها، ولا التفتت. هو هناك جنب الباب

- يا خالة.

ويسكت. يمر وقت وهو ساكت. تعرف أنه ما يزال هناك.

- يا خالة.

صوته خافت كأنما يهمس لنفسه. ويسود صمت خلف الباب. هذه المرة ذهب.

* * *

كتب للمؤلف

مجموعات قصصية

١- الكبار والصغار	عام ١٩٦٧
٢- حديث من الطابق الثالث	عام ١٩٧٠
٣- أحلام رجال قصار العمر	عام ١٩٨٤
٤- هذا ما كان	عام ١٩٨٨
٥- منحنى النهر	عام ١٩٩٢
٦- ضوء ضعيف لا يكشف شيئاً	عام ١٩٩٣
٧- ساعة مغرب	عام ١٩٩٦
٨- محابيس	عام ٢٠٠٢
٩- الشرطي يلهو قليلاً	عام ٢٠٠٣
١٠- نوافذ صغيرة	عام ٢٠٠٩ دار أخبار اليوم

روايـات:

١- التاجر والنقاش	عام ١٩٧٦	هيئة الكتاب
٢- المقهى الزجاجي	عام ١٩٧٩	هيئة الكتاب
٣- الأيام الصعبة	عام ١٩٧٩	هيئة الكتاب
٤- بيوت وراء الأشجار	عام ١٩٩٣	الآداب
٥- صخب البحيرة	عام ١٩٩٤	هيئة قصور الثقافة بالقاهرة
٦- أصوات الليل	عام ١٩٩٨	دار الهلال
٧- ويأتي القطار	عام ١٩٩٩	دار الهلال
٨- ليال أخرى	عام ٢٠٠٠	الآداب
١٤ فردوس	عام ٢٠١٠	دار أخبار اليوم
٩- أوراق العائلة	عام ٢٠٠٣	دار الهلال
١٠- الخالدية	عام ٢٠٠٤	دار الهلال - الآداب
١١- دق الطبول	عام ٢٠٠٥	دار الهلال - الآداب
١٢- جـوع	عام ٢٠٠٧	دار أخبار اليوم
١٣- أسـوار	عام ٢٠٠٨	دار أخبار اليوم

بطاقة الفهرسة

البساطى . محمد .

فردوس : رواية/ محمد البساطى . ـ ط١ ـ

القاهرة : قطاع الثقافة . ٢٠١٠ .

١٢٨ ص : ٢٠سم.

تدمك ٧ ١٤٩٩ ٠٨ ٩٧٧

١- القصص العربية

أ - العنوان ٨١٣

رقم الإيداع : ١٧٥٦٥ /٢٠١٠

الترقيم الدولى : 977-08-1499-7

بعذوبة بالغة، يصوغ لنا الروائى محمد البساطي، حكاية "فردوس". المرأة الجميلة المعذبة بزوج يكبرها ، ويهجرها فى الوقت ذاته. تقاوم علاقة حب محرم... وتدخل عالم الأحلام والخيال ملجأ لها. لكن هل تنجح مقاومتها؟

البساطى هو أبرز كتاب جيل الستينيات فى مصر، رغم أن رواياته السابقة تركز على المهمشين والمسحوقين فى قاع المجتمع إلا أنه لم يتخل عن لغته الشعرية، المكثفة الغنية بالدلالة والمنفتحة على تأولات متعددة ..وهذا أيضا ما يميز "فردوس" احدث رواياته.

اللوحة للفنان: صلاح طاهر

حصريات

مجلة الابتسامة

www.ibtesama.com